الايديولوجيا في الفكر الغربي بين تنوع الرؤى وتعدد الدلالات

د. وسيلة يعيش خزار

أستاذ مشارك

دكتوراه علوم في علم الاجتماع

قسم علم الاجتماع، جامعة الشارقة

o.yaiche@sharjah.ac.ae

00971504050882

(مُلَخَّصُ البَحث)

استطاع مصطلح "الإيديولوجيا" الذي لا يتجاوز في نشأته واستخدامه المائتي عام، أن يشغل اهتمام عدد كبير من الباحثين والمفكرين في مختلف حقول العلوم الانسانية والاجتماعية. وعلى الرغم من التداول الشائع للمفهوم، إلا أنه لم يكن موضع اتفاق أو محل مواضعة. ولا نبالغ إذا قلنا بأن "الإيديولوجيا " تعد من أكثر المفاهيم إثارة للجدل، وأقلها ثباتا من حيث الدلالة. بل إن "الإيديولوجيا" لكونها اجتماعية وتاريخية، أضحت منتوجا ثقافيا بامتياز، تتعدد وظائفه، وتختلف استخداماته، بتعدد الأهداف واختلاف المصالح الإيديولوجية.

تسعى هذه الورقة البحثية إلى فك الالتباس عن مفهوم "**الإيديولوجيا**"، من خلال الكشف عن مختلف الدلالات التي أُضفيت عليه في الفكر الغربي، والوقوف على أبرز نقاط التحول أو التحوير التي خضع لها عبر مسيرته التاريخية. ولتحقيق هذا المسعى جاء البحث مقسما لسبعة مباحث، يعرض كل مبحث دلالة من دلالات الإيديولوجيا، مشفوعة بنماذج فكرية تجسد هذا التنوع في الرؤى والتعدد في الدلالات.

الكلمات المفتاحية: الايديولوجيا، علم الأفكار، الوعي الزائف، الصراع الطبقي، الايديولوجيا السياسية، الايديولوجيا الشمولية.

مقدمة:

يعد مفهوم "الايديولوجيا" من جملة المفاهيم الملتبسة والغامضة والمتخمة بالتحولات الدلالية، وعلى الرغم من حداثته إلا أنه استطاع أن يشغل اهتمام عدد كبير من الباحثين والمفكرين في مختلف حقول العلوم الانسانية والاجتماعية. وبرغم التداول الواسع للمفهوم، في اللغة الشائعة، كما في الاستعمالات العلمية، إلا أنه لم يكن موضع اتفاق أو محل مواضعة. ولا نبالغ إذا قلنا بأن "الإيديولوجيا " من

أكثر المفاهيم إثارة للجدل، وأقلها ثباتا من حيث الدلالة. بل إن "الإيديولوجيا" لكونها اجتماعية وتاريخية، قد أضحت منتوجا ثقافيا بامتياز، تتعدد وظائفه، وتختلف استخداماته، بتعدد الأهداف واختلاف المصالح الإيديولوجية، وهذا ما جعل "ميشيل فوكو" في كتابه "نظام الخطاب" يقرر بأن الايديولوجيا تحمل مدلولا لا يمكن استعماله أبدا من دون تحفظ.

لم تحمل الأيديولوجيا في بدايتها أيّة معانٍ قدحية، أو إيحاءات تحقيرِية، حيث نشأت كعلم شارح لأصول العلوم، يراد منه دراسة الأفكار وتقييمها، إلا أن الوقت لم يَطُل كثيرًا لتخضع الأيديولوجيا للصيرورة التاريخية التي حوّلتها إلى منظومة فكرية ازدرائية، تتضمن مجموعة أفكار نظرية، مقطوعة عن الوقائع الملموسةِ. وقد احتفظ تاريخ مفهوم الأيديولوجيا منذ "نابليون" وحتى "ماركس" و"لينين" بالمدلول الانتقاصي للكلمة، لتدخل الأيديولوجيا على يد الماركسيين معترك المجادلات السياسية، وتصبح " الأدلجة" تهمة تتبادلها الأطراف السياسية باعتبارها "تزييفا للوعي"، و"تغييبا للعقل النقدي"، و"إخفاء للمصالح السياسية" و"تضليلا للرأي العام"، كل ذلك بعيدا عن الأصل العلمي للكلمة، والدور الذي أنيط بها باعتبارها الدراسة الموضوعية لأصل الأفكار، وشروط مطابقتها للحقيقة.

وقد واصلت "الأيديولوجيا" مسيرتها التاريخية، تتجاذبها الأحكام الإيجابية أحيانا والسلبية أحيانا أخرى، تربطها بالواقع السياسي والاجتماعي للمجتمعات الغربية وشائج قوية، جعلتها تؤدي وظائف هامة سياسية واجتماعية، تجسد التكامل بين المستويين النظري والواقعي في بنية الأيديولوجيا وفي تحديد مدلولها.

تروم هذه الورقة البحثية مقاربة مفهوم الأيديولوجيا في نشأته، ومقاصده الدلالية، والسجال الذي دار بصدده بين فلاسفة الحداثة الغربية من خلال طرح جملة التساؤلات التالية:

كيف ظهرت كلمة أيديولوجيا؟ وما الدلالات التي أضفيت عليها في تاريخ الفكر الغربي؟ وما هي أبرز نقاط التحول أو التحوير التي خضعت لها عبر مسيرتها التاريخية؟

ولتحقيق هذا المسعى جاء البحث مقسما لسبعة مباحث، يعرض كل مبحث دلالة من دلالات الإيديولوجيا، مشفوعة بنماذج فكرية تجسد هذا التنوع في الرؤى والتعدد في الدلالات.

المبحث الأول: الأيديولوجيا كعلم للأفكار

يعود الفضل في استخدام مصطلح الإيديولوجيا إلى المفكر الفرنسي "**أنطوان دستيت دي تراسي**" (1754-1836)، في كتاب له بعنوان " مشروع العناصر الإيديولوجية: قواعد اللغة والمنطق" المنشور عام 1801. وقد كان يهدف من ورائه إلى تأسيس علم جديد هو: "**الإيديولوجيا** "باعتبارها الدراسة العلمية للأفكار، واضعا نظاما متكاملا من الخطوات المنهجية التي يتم الاعتماد عليها في الوصول إلى الأسس التي تحكم عملية التفكير.

انطلاقا من دراسات " **دي كوندياك** " **(Etienne Bonnot de Condillac)** حول أصل الأفكار، اتجه "**دي تراسي**" إلى البحث عن الآليات التي تحكم عملية التفكير الإنساني المعقدة. فالقول بأن الأفكار تتولد عن الاحساسات، لا يجيب عن تساؤلات جوهرية ترتبط بعملية التفكير: إذ كيف تتحول الإحساسات إلى أفكار؟ وكيف يستطيع الانسان التركيب بين أفكار بسيطة فيولد أفكار أكثر تعقيدا؟ وكيف ينقل أفكاره إلى الآخرين بوضوح؟ وكيف يستقبل أفكارهم ثم يخضعها للنقد والتقييم؟ ولماذا نتفاوت في قدراتنا على التعبير الدقيق عن أفكارنا؟ ولماذا تكون القدرة على توليد الأفكار ونقلها للآخرين أضعف في مرحلة الطفولة؟ وينتهي "**دي تراسي**" عبر هذه التساؤلات الهامة، إلى التأكيد على دور اللغة والمنطق في عملية التفكير. فالتعبير عن الأفكار بوضوح، والتركيب بينها لتوليد أفكار أكثر عمقا، يتم بوساطة الكلمات، وهذا يستدعي مهارة التحكم في قواعد اللغة. أما ترتيب الأفكار، والحكم عليها بالصحة أو بالخطأ فيحتاج إلى التحكم في قواعد المنطق. مما يعني أن توليد الأفكار لا يمكن أن يستقل عن الإحساس، طالما أن الانسان لا يفكر بمواضيع لم تدركها حواسه. ولكن ترتيبها، إثراءها، نقلها، والقدرة على النقد الموضوعي لها، عمليات تتطلب مهارات خاصة لغوية ومنطقية، وهو بالذات ما تبحثه الإيديولوجيا، باعتبارها الدراسة العلمية للأفكار، القائمة على تحليل قواعد اللغة والمنطق. (De Tracy, 1905, 8-9)

لم تكن الغاية من تأسيس "**دي تراسي**" للإيديولوجيا معرفية خالصة، وإنما إصلاحية بالمقام الأول، فقد عبر بوضوح عن رغبته في توظيف العلم الجديد لإصلاح النظام التربوي العام بفرنسا. إن تدريس العلوم الطبيعية والإنسانية لابد أن يتم على قاعدة علمية صلبة، قوامها المعرفة بقواعد اللغة والمنطق، التي ينبغي استثمارها بكفاءة في عملية التدريس، من أجل تحقيق نتائج تعلمية أفضل. وقد اتخذ "**دي تراسي**" خطوات عملية في سبيل إقناع المجتمع العلمي بضرورة الالتفات إلى

العلم الجديد "**الإيديولوجيا**"، باعتباره الأرضية التي ينبغي الانطلاق منها في الوقوف على أصل الأفكار العلمية وتطورها، فأسس مع زملائه الإيديولوجيين المعهد الفرنسي للتربية، كما طالب بتغيير النظام التربوي بشكل كامل في فرنسا. (De Tracy, 1905, 18-19)

المبحث الثاني: الإيديولوجيا كأداة نقدية

يذهب "**باتريك كونتان**" (**Patrick Quantin**) إلى أنه من السذاجة الوقوف عند المعنى الاصطلاحي للإيديولوجيا، بل على العكس من ذلك تماما، ينبغي ربط هذا الإسهام بنتائج الثورة الفرنسية. فأمام الدمار الذي خلفته هذه الثورة، جاءت الإيديولوجيا بمثابة دعوة صريحة لضرورة خضوع السياسي للمثقف، فالهيمنة ينبغي أن تكون للفكر العلمي لا للممارسة السياسية. (Quantin, 1987, 99) ومعنى ذلك أن مصطلح الإيديولوجيا قد وضع منذ البداية لأهداف إيديولوجية نقدية.

وهو الطرح الذي يتبناه أيضا "**ديفيد هوكس**"(**David Hawkes**)، فقد نشأت الإيديولوجيا من منظوره كعلم شارح أو كعلم للعلم، بالنظر إلى ادعائها القدرة على تفسير نشأة وتطور الأفكار العلمية، ومثل هذا الطرح يوحي بتفوق الإيديولوجيا على كل الفروع العلمية الأخرى. (هوكس، ٢٠٠٠، ٤٦) كما أن تأكيد "**دي تراسي**" على المنشأ الحسي للأفكار، لا يعني الوثوق المطلق بصحتها، فقد تُرتَّب الأفكار في الذهن بشكل مغلوط، مما يقود إلى استنتاجات خاطئة. وعليه، فإن التداعيات العلمية للإيديولوجيا تشير إلى أن الأفكار لا يمكنها أن تكون منزهة عن الغرض والمصلحة. فإذا طبق ذلك على جميع الأفكار، بما فيها أفكار "**نابليون بونابرت**"(**Napoléon Bonaparte**) السياسية، كان من السهل على الإيديولوجيا نزع القناع عن الأهداف الكامنة خلف احتضان "**نابليون بونابرت**" للفاتيكان، وسعيه إلى الحصول على دعم الكنيسة الكاثوليكية لأطماعه الاستعمارية. مما يعني أن "**نابليون**" في هجومه على الايديولوجيين، ووصفه أعمالهم بالمثالية الخالصة التي لا علاقة لها بالواقع السياسي، كان يدرك تمام الادراك ارتباط أعمالهم الوثيق بالقضايا السياسية، وأن السماح لهم بمتابعة النقد الإيديولوجي، يعني استمرارية نزع القناع عن أفكاره السياسية وإضعافها، وفتح المجال لإحلال أخرى محلها. ويبدو أن التاريخ اللاّحق للإيديولوجيا وعلاقتها بالسياسة يؤيد ما ذهب إليه. (هوكس، ٢٠٠٠، ٤٧)

ويأتي "**كارل مانهايم**" (**Karl Mannheim**) ليتخذ موقفا معارضا من هذا الطرح، ذاهبا إلى أن الإيديولوجيين كانوا يشكلون مجموعة من الفلاسفة الفرنسيين

الرافضين للميتافيزيقا، والداعين إلى إرساء العلوم الإنسانية على قواعد عقلانية منطقية. وأن هذا المصطلح لم يرتبط بالسياسة إلا على يد" **نابليون بونابرت**". ففي فرنسا أسس "**دي تراسي**" هذا العلم بهدف القضاء على الخرافات والأوهام، وانتشال المجتمع الفرنسي من الجمود والتخلف الفكري. وفي فرنسا أيضا نسف" **نابليون بونابرت**"، الذي كان يومها العضو الفخري لمعهد فرنسا الذي أسسه "**دي تراسي**" هذا المعنى، عندما انسحب من موسكو مضطرا، وعاد ليصف رفقاءه في ذلك المعهد من أمثال الفيلسوف الحسي " **دي كوندياك** " **(Etienne Bonnot de Condillac)** و الطبيب" **كابانيس**" **(Pierre Jean Georges Cabanis)**، والأخلاقي "**فولني**" **(Constantin- François Chassebœuf dit Volney)**، الذين اتخذوا موقفا معارضا لتوجهاته الاستبدادية، وأطماعه الاستعمارية، بأنهم نظريون إيديولوجيون، لا يدركون من القضايا إلا جانبها النظري، دونما التفات إلى الجوانب العملية، ويدلون بآرائهم في المسائل السياسية من غير تمرس أو خبرة. وبديهي أن هذا المعنى القدحي يختلف كلية عن المعنى الاصطلاحي للّفظ، كما أنه لا يعكس مستوى تفكير هؤلاء الايديولوجيين، بقدر ما يجسد خوف" **نابليون بونابرت**" من آرائهم السياسية النقدية. ومما هو جدير بالذكر، أن المناقشات التي دارت بين "**نابليون**" والإيديولوجيين قد شكلت مضمون هذا المفهوم لسنوات طويلة جدا.

بانتقال عرش الفكر إلى ألمانيا خلال القرن التاسع عشر، انقلب المفهوم وأصبح التاريخ بدلا من العقل هو مناط الحقيقة، وشهد مفهوم الإيديولوجيا تطورا هاما على يد "**كارل ماكس**" **(Karl Marks)** الذي أكسبه صبغة مادية واضحة. وهكذا توارى ذلك المفهوم الذي تبناه الإيديولوجيون، ليحل محله مفهوم "**ماركس**" ذو الأساس التحليلي للبنية الاجتماعية.

المبحث الثالث: الإيديولوجيا كوعي زائف

يذهب "**غورفيتش**" **(Georges Gurvitch)** إلى أنه في أعمال" **ماركس**" الشاب يتسم تعبير الإيديولوجيا بطابع محقر لا ريب فيه، وهو الذي أطلقه "**نابليون**" على أعضاء أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية من أصدقاء "**ديستوت دي تراسي**"، وقد اتخذ هذا التعبير في قلم "**ماركس**" الشاب، كما اتخذ في قلم الإمبراطور طابع الازدراء. وقد استخدمه "**ماركس**" في كتابه "الإيديولوجية الألمانية" ١٨٤٥، ليهاجم به الفلسفة الألمانية في عصره، من حيث تأكيدها على استقلالية الأفكار ومفارقتها للواقع. من هنا وصفت الإيديولوجيا، بأنها" مفهوم يقلب الأشياء

رأسا على عقب، وأنها الصورة الكاذبة التي يرسمها الناس عن أنفسهم بهدف تبرير بعض الأوضاع الاجتماعية الخاصة. " (ماركس وانجلز، ٢٠١٣، الفصل ١)

ويزداد معنى مصطلح الإيديولوجيا اتساعا ابتداء من مقدمة كتاب "نقد الاقتصاد السياسي" 1859، بحيث يدرج "**ماركس**" ضمن البنية الإيديولوجية كل الأعمال الثقافية: القانون والأخلاق واللغة والمعارف الفلسفية والعلمية، وكل المذاهب والمواقف الاجتماعية والسياسية، وكل المنتجات الفكرية التي تميز الوعي الطبقي. لقد كان "**ماركس**" مهتما بالدور الذي تلعبه الإيديولوجيا في تعميق وتكريس عدم المساواة الاجتماعية، فالأفكار لا تنبثق من الممارسات الاجتماعية المتناقضة فحسب، ولكنها تساعد أيضا في إعادة إنتاجها. الإيديولوجيا كانت دائما مساعدا في تحقيق مصالح الفئات الحاكمة التي توجه وتشرف على المعرفة الاجتماعية، ووظيفتها كانت دائما تبرير لنمط الإنتاج السائد. ولهذا كتب "**ماركس**" في الإيديولوجيا الألمانية: " إن أفكار الطبقة السائدة في المجتمع هي أيضا الأفكار السائدة، الطبقة التي تملك وسائل الإنتاج المادي تكون أيضا مالكة لوسائل الإنتاج الفكري "(ماركس وانجلز، ٢٠١٣، الفصل ١). مضيفا " إن الأفكار السائدة ليست أكثر من كونها التعبير الفكري عن العلاقات المادية السائدة، أو هي العلاقات المادية السائدة مدركة على هيئة أفكار، وبالنتيجة فهي العلاقات التي تجعل من طبقتها طبقة سائدة، فهي إذن أفكار سيادتها" (سبيلا وبنعبد العالي، ١٩٩٩، ٤٠).

وفقا "**لماركس**" فإن الإيديولوجيا السائدة تعمل من خلال التزييف والخداع، لإظهار خصوصيات المجتمع في صورة غير حقيقية، زائفة، إنها صورة النظام المتناسق سياسيا. وإن كل نمط إنتاج لديه طبقة في صورة متميزة مستفيدة، وهي التي تسيطر على وسائل الإنتاج وتهيمن على المجتمع. هؤلاء المستفيدون يسعون إلى خلق مؤسسات سياسية، تدعم قوتهم القهرية، وإلى إيجاد إيديولوجيا سياسية تبرر وتؤيد امتيازاتهم وسلطتهم، حيث يقول: "على أساس من الأشكال المختلفة من الملكية، وعلى أساس ظروف الوجود الاجتماعي، تقوم بنية عليا من الانطباعات والأوهام وأشكال التفكير والتصورات الفلسفية الخاصة. إن الطبقة برمتها تخلقها وتصوغها على أساس هذه الظروف المادية والعلاقات الاجتماعية المقابلة لها... وكما أننا نميز في الحياة الخاصة بين ما يقوله أو يتصوره إنسان عن نفسه، وبين ما هو عليه في حقيقته وما يفعل. كذلك يجب أن نميز في الصراعات التاريخية بين كلام وادعاءات الأحزاب، وبين كيفية تشكلها ومصالحها الحقيقية، أي ما بين الصورة التي تكونها عن نفسها وبين ما هي عليه في حقيقة الأمر "(سبيلا وبنعبد

العالي، ١٩٩٩، ٣٤). وهذا ما يقصده" **غرامشي**" **(Gramsci)** عندما يذهب إلى أن الإيديولوجيا البرجوازية هي نتاج لفئات ومجموعات محددة من الأفراد المثقفين والقانونين والسياسيين البرجوازيين. ومن خلال هؤلاء تنتشر هذه الإيديولوجيا عن طريق الصحافة والكتاب والأحاديث خاصة الأحاديث السياسية. فالطبقة البرجوازية لها إيديولوجيون معينون، يعبرون عن مصالحها واحتياجاتها وأمانيها، ويترجمون هذه المصالح والاحتياجات في الوعي الاجتماعي وفي الرأي العام، عبر التراث القانوني والسياسي والفلسفي والتربوي والصحفي والروائي المسرحي.

وفي تحليله لوظيفة الإيديولوجيا داخل المجتمع الطبقي يقول "**ماركس**": " عندما نقول بأن تاريخ المجتمع لم يكن حتى الآن غير تاريخ صراع بين الطبقات... تاريخ نضال الغالبية المغلوبة ضد الأقلية الظالمة، فإننا لا نكون قد ألغينا مقولة المجتمع، فالاستغلال الطبقي هو بالضرورة استغلال اجتماعي، والهيمنة الطبقية لا تنف المجتمع، بل تفترضه وتستدعيه. وفي ظل مجتمع الاضطهاد الطبقي، لا بد للعنف أن يلعب دورا تاريخيا محددا، وإلا استحال قيام المجتمع. ولكن المجتمع لا يقوم مع ذلك على العنف المحض، وإلا كف عن أن يكون مجتمعا. إن المجتمع لا بد أن يقبل، وكل بنية اجتماعية بعلاقاتها الاجتماعية الحقوقية المحددة لا بد أن تحظى بقبول قسم كبير من أعضائها إن لم نقل كلهم" (أبو شهيوة وآخرون، ١٩٩٣، ٣٣). ولكن كيف يتم التوصل إلى هذا القبول؟

إن القبول لن يكون عن طريق العنف المحض، فالعنف يكشف واقع الاضطهاد ويجعل الوجود الاجتماعي مستحيلا. قد لا يكون مضرا، في فترات الأزمات بوجه خاص اللجوء إلى العنف لتحقيق التقدم الاجتماعي، ولكن العنف في غير تلك الفترات بحاجة هو الآخر إلى أن يكون مقنعا أي مقبولا، وهنا على وجه التحديد يكمن دور الإيديولوجيا، فهي تبرر الاضطهاد والعنف، وتخلق القبول الذاتي. وعلى حد تعبير "**مالك عبيد أبو شهيوة**" فإن وظيفة الإيديولوجيا هي أن تسمي الأشياء بغير أسمائها، وأن تعطي الوقائع المادية اسما مهذبا وغلافا ضبابيا تصبح معه مقبولة. فالمضطَهدون بحاجة نفسية إلى هذا الوهم الإيديولوجي، من أجل تمويه واقع الاضطهاد، فالاضطهاد يتنافى مع الحد الأدنى من الكرامة الإنسانية، وما دام الإنسان عاجزا عن مواجهته، ومكرها على القبول به، فإن مقتضيات الحفاظ على كرامته توجب عليه ألا يراه على حقيقته، ومن هنا كانت حاجته إلى الإيديولوجيا التي يقدمها له مضطهدوه. وبالمثل فإن للمضطهدين أيضا حاجات نفسية: فهم في غالبيتهم لا يقرون بينهم وبين أنفسهم بأنهم جلادون. إنهم

بحاجة هم أيضا إلى تمويه واقع الاضطهاد لأنهم حريصون هم أيضا على كرامتهم الإنسانية، والإيديولوجيا هي التي تتكفل بتلبية حاجتهم الروحية هذه، إذ تعكس لهم في مرآتها صورة مثالية عن أنفسهم، صورتهم لا كما هم في الواقع، وإنما كما يريدون أن يظهروا في أنظارهم وأنظار الآخرين. ووفقا لما سبق، فالإيديولوجيا هي مرآة مهمتها أن تعكس للطبقة السائدة صورة عن ذاتها ولذاتها، تبجلها وترفع من شأنها، وصورة عن الطبقات الأخرى، وللطبقات الأخرى، تحط من شأن هذه الطبقات، وتبخس قيمتها في نظر نفسها بالذات، فترضخ وتستسلم لمصيرها كطبقات مسودة.

وهكذا نصل إلى القول بأن الإيديولوجيا عند "**ماركس**" هي تبرير للمصالح الاقتصادية والقوة السياسية للطبقة السائدة في المجتمع، وإن كل جهود الإنسان الفكرية من دين وفلسفة وأخلاق وقانون وأدب وفن... تتلاشى في إيديولوجية واحدة تخدم امتيازات الطبقة السائدة، ولهذا فالإيديولوجيا عند "**ماركس**" تضليل وخداع بل هي وهم زائف. ولهذا لم يستخدم "**ماركس**" و"**أنجلز**" مفهوم الإيديولوجيا للإشارة إلى نظريتهما الخاصة، على الرغم من أنهما يريان أنها نظرية تتسق ومصالح طبقة البروليتاريا، وذلك لأنهما لم يفكرا بأنها شكل من أشكال الوعي الزائف. وهذا ما يؤكده" **غورفيتش**" بقوله: "... لا وجه للمقابلة بين الإيديولوجيا البروليتارية، وبين غيرها من الإيديولوجيات، فهي إيديولوجيا ممتازة لأنها تتكفل بتغيير العالم وإنهاء وجود الطبقات وفي أعقابها الإيديولوجيات نفسها... فهي ضرب من المعرفة متحررة من كل علاقة بالمجالات الاجتماعية، وتنتهي إلى الحقيقة الكاملة. " (سبيلا وبنعبد العالي، ١٩٩٩، ٤٣-٤٤).

والواقع أننا إذا سلمنا مع "**ماركس**" بأن الإيديولوجيا تمثل تمويها لحقيقة الوجود الاجتماعي وعلاقاته، مما يجعلها وعيا مقلوبا أو زائفا، وينفي عنها إمكانية الرؤية السليمة للواقع. فان الماركسية نفسها لا تنجو من هذا الوصف، إلا إذا سلمنا بعصمتها. إن لغة المنطق تفرض علينا النظر إلى الإيديولوجيا البروليتارية على قدم المساواة مع الإيديولوجيا البرجوازية، لأن المالك الذي يبالغ في الخوف على فقدان ممتلكاته فينحرف عن الحقيقة، يماثل المعدم الذي يبالغ في التعويض عن عقدة الدونية، وعن الاضطهاد الاجتماعي فينحرف عنها أيضا. وهكذا فإنه لا مجال للقول بأن إيديولوجية الأخير صادقة وحقيقية بالضرورة، فكل طبقة تبدع منظومتها الفكرية التي تبرز مصالحها الظرفية، وجميعها تخدم المرامي والأهداف

الموضوعة لها. وهذا هو التصور الذي جاء واضحا في أعمال " **فلاديمير لينين**" **(Vladimir Lénine)** فيما بعد.

المبحث الرابع: الإيديولوجيا كأداة للصراع الطبقي

جاء مفهوم" **لينين**" للإيديولوجيا نقيض مفهوم "**ماركس**" لها، ففي الوقت الذي أعطاها "**ماركس**" معنى معرفيا سلبيا، فإن "**لينين**" اعتبرها" مجموع أشكال المعرفة والنظريات التي تنتجها طبقة معينة للتعبير عن مصالحها. والإيديولوجيا بمفهومها الجديد قد تعكس الحقيقة وقد تكون زائفة، ولكنها تبقى مفيدة بالنظر إلى وظيفتها التعبوية، التي لا تعتمد بالضرورة على صدقها، فكل الطبقات يمكن أن تكون لها إيديولوجيات." (Boudon, 1986, 30) وبالتالي فكما أن هناك إيديولوجيا برجوازية، هناك إيديولوجيا بروليتارية أيضا. وفق هذا المنظور ارتبطت الإيديولوجيا بالطبقة، بصرف النظر عن وضعها الاقتصادي والاجتماعي، وبعد أن كان العلم نقيض الإيديولوجيا عند ماركس"، أصبح من الممكن الحديث عن الماركسية باعتبارها إيديولوجيا البروليتاريا الثورية. لقد أصبحت الإيديولوجيا مساوية للوعي الطبقي الذي يعتبره "**لينين**" "جزءا من البناء الفوقي الذي هو نتاج البناء التحتي، ولا يمكن أن يتم التغيير في البناء الفوقي إلا بتغيير المجتمع ككل." (خليفة وآخرون، دس، ١٣٣)

لقد أفقد "**لينين**" مفهوم الإيديولوجيا عند "**ماركس**" صبغته النقدية، وقياسا على ذلك فإن الإيديولوجيا تنتهي عند "**ماركس**" بنهاية المجتمع الطبقي. أما على أساس مفهوم "**لينين**" لها فهي باقية للأبد. وما الصراع الذي احتدم في ستينيات القرن الماضي حول مقولة نهاية الإيديولوجيا، ورفض الماركسيين لها، إلا لأنهم يستخدمون المفهوم اللّينيني، أما إذا استخدموا مفهوم "**ماركس**" لكانوا أول المؤكدين لنهاية الإيديولوجيا بتحقيق المجتمع اللاّطبقي.

في عام ١٩٢٢ أصدر الماركسي المجري "**جورج لوكاش**" **(Georg Lukacs)** كتابه الشهير " التاريخ والوعي الطبقي "، الذي يعرض فيه مفهوما للإيديولوجيا ينطلق من أصول ماركسية وأخرى لينينية. حيث يرى مثله مثل "**لينين**" أن لكل طبقة إيديولوجيتها الخاصة التي تدافع عن مصالحها وتبرر مشروعيتها. ولكنه يختلف عنه في اهتمامه بالعوامل التي تؤخر النضج الإيديولوجي لطبقة البروليتاريا. وإذا كان "**لوكاش**" يعتبر مثله مثل "**ماركس**" أن الوعي الطبقي للبرجوازية مشوه، فإنه خلافا له يعتبر أن هذا التشويه يمكنه أن يطال الوعي الطبقي للبروليتاريا أيضا. وكما أن الوعي الطبقي البرجوازي زائف لأنه قائم على

التعارض بين قوانين الاقتصاد السياسي التي يدافع عنها المنظرون البرجوازيون، والأزمات الحادة التي يفرزها أسلوب الانتاج الرأسمالي. فإن الوعي البروليتاري أيضا معرض لأن يكون زائفا، متى اقتنعت البروليتاريا بالأهداف الآنية التي تحققها النقابات العمالية، وتراجعت عن أهدافها النهائية المتمثلة في تحقيق التحول الجذري، وتحرير الطبقات العاملة تحريرا نهائيا. (لوكاش، ١٩٨٢، ٧٢)

في المجتمع الرأسمالي، يمكن لأي طبقة من منظور "**لوكاش**"، أن تنظم المجتمع برمته انطلاقا من وعيها الطبقي، وتطابقا مع مصالحها الطبقية، شريطة أن تمتلك الوعي الطبقي الحقيقي الذي يمكنها من وضع أهدافها موضع الممارسة الفعلية (لوكاش، ١٩٨٢، ٥٤). ويؤكد "**لوكاش**" أن البرجوازية ليست مؤهلة على الصعيد النظري للتحرر من وعيها الطبقي الزائف، لأن ممارستها العملية تتطابق مع نظرية مغلوطة، تلائم تماما مصالحها الطبقية. أما البروليتاريا، فإن الممارسة العملية لديها تتطابق مع نظرية علمية هي المادية التاريخية، ولذلك فهي وحدها المؤهلة لامتلاك وعي طبقي حقيقي. وحتى يتحقق ذلك، لابد أن تتجاوز "الدعاوى الانتهازية" التي تشغلها بأهداف آنية عن أهدافها النهائية المتمثلة في حل أزمة الرأسمالية. إنها مطالبة بأن تتحول من طبقة في ذاتها إلى طبقة لذاتها، أي بتحقيق نضجها الإيديولوجي الذي يمثل وعيها الطبقي. مما يعني أن الوعي الطبقي في تصور "**لوكاش**" ليس هو الوعي السيكولوجي للبروليتاريا كأفراد، كما أنه لا يمثل الوعي السيكولوجي لكتلهم الاجمالية، بقدر ما يمثل اتجاه الطبقة التاريخي نحو أهدافها النهائية. إن الصراع من أجل تحقيق المجتمع اللاّطبقي، الذي ليست دكتاتورية البروليتاريا إلا مرحلة بسيطة منه، ليس فقط صراعا ضد العدو الخارجي البرجوازية، ولكنه بذات الحين صراع ضد البروليتاريا المتشيئة (لوكاش، ١٩٨٢، ٧٣-٧٨). إن أثقل الحواجز التي تواجه" البروليتاري المولود في أحشاء التشيؤ الرأسمالي، مبدأ الفصل بين الصراع الاقتصادي والصراع السياسي. ومرات عديدة دلل "**ماركس**" على أن هذا الفصل لا أساس له. مبينا كيف أن جوهر كل صراع اقتصادي تحوله إلى صراع سياسي. إن هذا الانحراف للوعي الطبقي البروليتاري أساسه التصادم بين الهدف الجزئي والهدف العام". (لوكاش، ١٩٨٢، ٧٠)

وبالرغم من أن "**لوكاش**" يتشابه مع "**لينين**" في إعطائه مضامين واسعة للإيديولوجيا، غير أنه يختلف معه في إضفائه الصبغة العلمية الموضوعية على الإيديولوجيا البروليتارية خلافا للإيديولوجيا البرجوازية. حيث يرى بأن علمية الإيديولوجيا الماركسية بديهية، حتى لو أثبت التحليل العلمي خطأ كل النتائج التي

انتهى إليها "**ماركس**". وفي هذا السياق يقول: "إذا افترضنا أن الأبحاث المعاصرة قد أثبتت عدم صحة جميع توكيدات "**ماركس**" الخاصة، فإن الماركسي الأرثوذكسي الجاد يستطيع أن يعترف بلا شروط بجميع هذه النتائج الجديدة، وأن يرفض كل أطروحات "**ماركس**" الخاصة، من غير أن يجد نفسه مكرها للتخلي ولو للحظة واحدة عن أرثوذكسية الماركسية... فالأرثوذكسية تفرض القناعة بأن منهج البحث الصحيح قد وجد بوجود الماركسية" (أبو شهيوة وآخرون، ١٩٩٣، ٤١-٤٢). ومازال هذا الطرح يجد صداه حتى اليوم، فهناك بعض الأوساط التي لا ترى في علمية الماركسية نتيجة وحصيلة، وإنما مسلمة ومعطى مسبق، وبدلا من أن تؤسس الصفة العلمية للماركسية على نتائج البحث العلمي والدراسة الموضوعية للواقع الاجتماعي، تجعل منها مبدأ قبليا لا يحتاج إلى برهان ذاتي، وذلك بحجة التطابق المزعوم بين الحقيقة المطلقة وبين البروليتاريا. فالبروليتاريا بحكم وضعها في المجتمع، ليس لها من مصلحة في ألا تعرف الحقيقة، ومن ثم فإن إيديولوجيتها لا تملك خيارا في ألا تكون صحيحة. إن هذا الطرح الذي يوحد بين العلم والبروليتاريا كانت له تطبيقات سلبية جدا، حيث أصبحت البروليتاريا قيمة على الحقيقة المطلقة، وأصبح الحزب المدافع عن مصالحها معصوما حتى عندما يخطئ، وأصبحت كل معارضة له معارضة للحقيقة، وما تاريخ الستالينية إلا صورة للحزب الذي لا يمكنه أن يخطئ، باعتباره حزب البروليتاريا.

وإجمالا، فقد ذهب "**لوكاش**" أبعد من "**ماركس**" و"**أنجلز**" وحتى "**لينين**" في إضفائه الصبغة العلمية على الإيديولوجيا البروليتارية. وفي عام ١٩٣٦ نشر "كارل مانهايم" (**Karl Mannheim**) كتابه " الإيديولوجيا واليوتوبيا" ليسحب مفهوم الإيديولوجيا إلى ميدان البحث السوسيولوجي، بعد أن ظل غائبا بشكل عام عن المراجع والمعاجم الرئيسية، حيث لم تتضمنه موسوعة العلوم الطبيعية الصادرة عام 1932. ويمكن وصف مثل هذا التطور بأنه حلقة مهمة في وضع هذا المفهوم في سياقه الاجتماعي العلمي.

ذهب "**مانهايم**" إلى إمكانية تحليل الواقع الاجتماعي والتغير الاجتماعي والتاريخ والمجتمع على ضوء مصطلحات التوبيا (Topia)، واليوتوبيا (Utopie)، والثورة، والإيديولوجيا. وهو يقصد بالتوبيا النظام القائم داخل المجتمع، وبالإيديولوجيا الأنظمة الفكرية التي تستهدف الدفاع عن هذه الأنظمة القائمة، وتبريرها حماية لمصالح الفئات الحاكمة، فهي أنظمة فكرية دفاعية. أما اليوتوبيا فهي الأنظمة الفكرية التي تحاول تغيير النظام القائم وتحطيم أغلاله، وتنظيم

الأنشـــطة اللازمـــة لتحقيـــق هـــذا الهـــدف. (مانهـــايم، ١٩٨٠، ١٥١-١٥٣). إن الإيـديولوجيا إذن هـي منظومـة فكريـة لطبقـات فـي فتـرة سـيادتها، أو بتعبيـر آخـر هـي فكـر التكـوين الاجتمـاعي السـائد أو المهـيمن فـي المجتمـع، وهنـا يلتقـي "**مانهـايم** "مـع "**مـــاركس**". أمـا اليوتوبيـا فهـي المنظومـة الفكريـة الخاصـة بالطبقـات الـدنيا فـي السُـلّم الاجتمـاعي، أو هـي فكـر التكوينـات السـاعية للمسـتقبل. ممـا يعنـي أن مـا يسـميه "**لينـــين**" و"**لوكـــاش**" بالإيـديولوجيا البروليتاريـة إنمـا يمثـل فكـرا يوتوبيـا مـن منظـور "**مانهـــايم**". وبغـض النظـر عـن كـون الأفكـار إيديولوجيـة أو يوتوبيـة، فهـي فـي واقـع الأمـر تعبيـر عـن مصـالح تكوينـات اجتماعيـة مختلفـة، وكـل منهـا تـؤثر بشـكل أو بـآخر فـي مجـرى التـاريخ وتطـور المجتمـع. وفـي هـذا يقتـرب "**مانهـايم**" مـن "**لينـين**" مـع فـارق هـام وهـو أن "**مانهـايم**" لا يعطـي الأفضـلية للفكـر اليوتـوبي مـن حيـث قدرتـه علـى تقـديم رؤيـة موضـوعية للواقـع الاجتمـاعي. كمـا يظهـر تـأثر "**مانهـايم**" "**بمـاركس**" فـي تحليلـه لآليـة التغيـر الاجتمـاعي اعتمـادا علـى المـنهج الجـدلي، وذلـك فـي قولـه بـأن النظـام القـائم يـؤدي إلـى ظهـور أفكـار تحـاول تجـاوزه هـي اليوتوبيـات، وهـذه بـدورها بعـد أن تتحـول إلـى توبيـا تسـهم فـي ظهـور يوتوبيـات أخـرى تعمـل علـى تحطيمهـا فـي اتجـاه نظـام جديـد اجتماعيـا وتاريخيـا، ومـن هنـا نسـتنتج أن تمييـز "**مانهـايم**" بـين الإيـديولوجيا واليوتوبيا يبقى غير دقيق على اعتبار أن يوتوبيا اليوم قد تصبح إيديولوجيا الغد.

يميـز "**مانهـــايم**" فـي ضـبطه لمفهـوم الايـديولوجيا بـين الإيـديولوجيا الخاصـة والإيـديولوجيا العامـة. تمثـل الأولـى محاولـة تزييـف واقـع معـين إذا كـان يتعـارض مـع مصـالح الفـرد. إنهـا تشـير إلـى أننـا " نتخـذ موقفـا متشـككا اتجـاه الأفكـار والتصـورات التـي يتقـدم بهـا خصـمنا، إذ نعتبرهـا تمويهـات واعيـة بدرجـة متفاوتـة تخفـي الطبيعـة الحقيقيـة لوضـع لـن يكـون الاعتـراف بحقيقتـه متفقـا مـع مصـالح الخصـم. وتتـراوح هـذه التحريفـات بـين الأكاذيـب المقصـودة والتمويهـات غيـر المقصـودة" (مانهـايم، ١٩٨٠، ١٢٩)، وهـو المعنـى الـذي أسـس لـه "**تـــابليون**". فيمـا تمثـل الإيـديولوجيا العامـة "إيـديولوجيا عصـر مـا، أو إيـديولوجيا جماعـة تاريخيـة –اجتماعيـة محـددة، كإيـديولوجيا طبقـة مـثلا" (مانهـايم، ١٩٨٠، ١٢٩). إنهـا تتصـل بخصـائص وتركيـب البنيـة الكليـة الشـاملة لعقليـة عصـر مـا، أو جماعـة اجتماعيـة مـا، بحيـث تضـع رؤيـة الخصـم الكليـة أمـام التسـاؤل. ويظهـر القاسـم المشـترك بـين المفهـومين واضـحا فـي فكـرة التشـويه والتزويـر، فسـواء ارتبطـت الإيـديولوجيا بـالفرد أو بالجماعـة أو بالطبقـة، فإنهـا تنطـوي فـي كليتهـا علـى عنصـر التزييـف، وهـذا الأخيـر لا يمكـن كشـفه إلا مـن خـلال ربـط الأفكـار والأقـوال والقضـايا والمـذاهب بـالظروف المجتمعيـة للفـرد أو الجماعـة، "

فـالآراء والأقـوال والمـذاهب لا تؤخـذ بمعناهـا الظـاهري، ولكنهـا تفسـر علـى ضـوء الوضـع الحيـاتي لمـن يـدلي بهـا. وهكـذا تعتبـر الأفكـار التـي تعبـر عنهـا الـذات نتاجـا لوجودها." (مانهايم، ١٩٨٠، ١٣٣)

إن العلاقـة بـين الأفكـار والأوضـاع الاجتماعيـة هـي علاقـة تـرابط، وطالمـا أن الأفكـار السياسـية تعبـر بشـكل أو بـآخر عـن مصـالح تكوينـات محـددة، فـإن النتيجـة سـتكون هـي نسـبية الحقيقـة الاجتماعيـة. وعلـى هـذا يبـدو أن هنـاك تعـددا للحقـائق، فكـل لـه حقيقتـه، ارتكـازا علـى موقعـه ومصـالحه. وهـذا مـا أسـماه "**مانهـايم**" بالمنظوريـة، والتـي تشـير "إلـى أن كـل فئـة اجتماعيـة تـرى المجتمـع مـن موقـع خـاص بهـا تحـدده مصـالحها، فتـرى الأحـداث طبقـا لمنظورهـا الخـاص" (أبـو شـهيوة وآخـرون، ١٩٩٣، ٥٥). وإذا كانـت الإيـديولوجيا تحـرص علـى تثبيـت الموقـف الـراهن، وبالتـالي تعمـل فـي بعـض المواقـف بـوعي أو عـن غيـر وعـي علـى طمـس معـالم الظـروف الحقيقيـة المحيطـة بـالمجتمع، وحجبهـا سـواء عـن أعينهـا أو عـن أعـين الآخـرين، فـإن اليوتوبيـا علـى النقـيض مـن ذلـك تعكـس نضـال الجماعـات المقهـورة فـي بحثهـا عـن تغييـر الأوضـاع القائمـة، لـذلك فهـي لا تـرى فـي الموقـف الاجتمـاعي إلا تلـك العناصـر التـي تميـل إلـى إنكـاره وإبطالـه. وبهـذه الكيفيـة يكـون الفكـر الإيـديولوجي كـالفكر اليوتـوبي عـاجزا عـن تقـديم تحليـل صـادق للموقـف الاجتمـاعي الـراهن. وهنـا بالـذات يختلـف "**مانهـايم**" عـن كـل مـن "**لينـين**" و"**لوكـاش**" فالتوبيـا ليسـت علميـة بالضـرورة. ومـن ثمـة ينتهـي "**مانهـايم**" إلـى أن جماعـة المثقفـين وحـدها يمكنهـا لوضـعها المتميـز، أن تتجـاوز حالـة التشـويه الإيـديولوجي، وأن تـوفر المعرفـة الموضـوعية مـن وجهـة النظـر التاريخيـة. وذلـك لأن المثقفـين فـي المجتمـع الحـديث ينحـدرون عمليـا مـن جميـع الفئـات، بحيـث يـربط التعلـيم بيـنهم بأسـلوب جديـد يـرفعهم خـارج الطبقـات، ويتـيح لهـم التفكيـر بحريـة دون ارتبـاط بأيـة مصـالح اقتصـادية أو سياسـية أو غيرهـا. هـذا المثقـف المتحـرر مـن الانتمـاء الطبقـي هـو الـذي يمكنـه أن يصـل إلـى الـوعي الصـحيح، لأنـه يقـوم بالمقارنـة بـين الإيـديولوجيات السياسـية، فهـو يقـوم بنقـد الواحـدة مـن منظـور الأخـرى، وبـذلك يتحـرر مـن الحـدود التـي يفرضـها الموقـع الاجتمـاعي. إن الحقيقـة علـى حـد تعبيـر "**مانهـايم**" تاريخيـة وشـمولية، ولـذلك لا يسـتطيع الفكـر الإيـديولوجي جنبـا إلـى جنـب مـع الفكـر اليوتـوبي أن يـدرك هـذا الكـل التـاريخي. فتبقـى المعرفـة الحقيقيـة فـي متنـاول المثقفـين اللاّمنتمـين، وذلـك مـن خـلال قـدرتهم علـى تركيـب العناصر الصادقة في المنظورات المختلفة. (مانهايم، ١٩٨٠، ٢١٣-٢١٤)

وإن كنا لا نشاطر "**مانهايم**" هذا الرأي، فمثل هذا المثقف الخرافي لا وجود له، كما أنه لا يمكن أن يوجد، وسوسيولوجيا المعرفة التي تدين بالكثير لهذا المفكر تؤكد ذلك، فالمثقف يظل جزءا لا يتجزأ من الوجود الاجتماعي، وهو يتأثر لا محالة بتناقضاته الفئوية والطبقية، إلا أننا نقر بالرغم من ذلك بالإسهام المتميز "**لمانهايم**" في هذا المجال والذي سحب مفهوم الإيديولوجيا من مجرد التداول العرضي، إلى ميدان البحث السوسيولوجي. كما أنه يحيلنا إلى مناقشة الدور الايديولوجي للمثقفين في دعم الشرعية السياسية للطبقة المهيمنة كما يتجلى في أعمال "**غرامشي**"، "**ألتوسير**"، و"**بورديو**".

المبحث الخامس: الإيديولوجيا كأداة للهيمنة السياسية

في نهاية عشرينيات القرن الماضي، قدم "**أنطونيو غرامشي**" **(Antonio Gramsci)**، مفهومه للإيديولوجيا باعتباره ماركسيا، وفي مرحلة سيادة الماركسية اللينينية الستالينية في الحركة الشيوعية العالمية. حيث رفض النظر إلى الإيديولوجيا باعتبارها وعيا زائفا أو تشويها للواقع، وبذلك فهو يدخل ضمن الإطار العام لمفهوم "**لينين**"، وفيما عدا ذلك فإنه يختلف مع كل من "**ماركس**" و" **لينين**" و"**لوكاش**" و"**مانهايم**".

خلافا "**للينين**" يذهب "**غرامشي**" إلى أن الإيديولوجيا ليست طبقية، إنها "تساوي الفلسفة، وتساوي النظرة الكونية الشاملة وتساوي السياسة، أي مجمل الأفكار التي تحرك مجتمعا ما، أو تُكوّن أساسا لوجوده وحركته، وهي لا تشمل فقط النظريات والأفكار العامة، بل تشمل كذلك كل أنساق القيم والمعتقدات" (خليفة وآخرون، دس، ١٣٥-١٣٦). إنها أساس كل نظام اجتماعي وسياسي، وذلك لأن المجتمع لا يقوم على العنف كما يتصور "**ماركس**" و "**لينين**" وإنما على الهيمنة الإيديولوجية.

ليست هناك في تصور "**غرامشي**" إيديولوجيا برجوازية نقية وإيديولوجيا بروليتارية نقية، فالإيديولوجيا في المجتمع الطبقي هي إيديولوجيا مجتمع وليست إيديولوجيا طبقة. إنها بناء مكون من العديد من العناصر المتناسقة المشدودة بعضها إلى البعض الآخر في وحدة بنائية واحدة. والصراع الإيديولوجي هو عملية تحليل أو تفكيك وإعادة تركيب للعناصر الإيديولوجية حول عنصر إيديولوجي أساسي ذي طبيعة طبقية. بمعنى أن هدف الصراع ليس القضاء على إيديولوجية طبقة وإحلال إيديولوجية طبقة أخرى محلها، ولكنه كما سبق القول، تفكيك وإعادة تركيب، أو هو صراع على الهيمنة الايديولوجية. (خليفة وآخرون، دس، ١٣٦-١٣٧)

ينظر "**غرامشـــي**" للإيـديولوجيا، باعتبارهـا عامـل محـدد للحـس المشـترك، وضـرورة تاريخيـة لتنظـيم وتوجيـه الجمـاهير، مؤكـدا علـى قـدرة البروليتاريـا علـى تحديـد شـروط وعيهـا، رافضـا الطـرح الـذي يتعامـل معهـا باعتبارهـا مجـرد أداة سـلبية وتابعـة للإيـديولوجيا المهيمنـة. فالطبقـة العاملـة مـن منظـور "**غرامشـــي**" قـادرة علـى خلـق إيـديولوجيتها المضـادة للإيـديولوجيا المهيمِنـة؛ وذلـك مـن خـلال بنـاء مؤسسـاتها الثقافيـة الخاصـة وإنتـاج مثقفيهـا العضـويين. معتبـراً الهيمنـة اسـتراتيجية ضـرورية لأي مشـروع يهـدف لتغييـر الهيكلـة السياسـية والاقتصـادية والاجتماعيـة للدولـة. ولا يمكـن الـتخلص مـن هيمنـة الطبقـة السـائدة، إلا عـن طريـق بنـاء طليعـة ثوريـة لـدى الطبقـة الخاضـعة أو التابعة قادرة على إنتاج وتشكيل هيمنتها المضادة.

ويوضـح "**غرامشـــي**" الآليـات التـي يمكنهـا أن تقـود الطبقـات الاجتماعيـة نحـو النفـوذ والسـيطرة والزعامـة فـي خضـم عمليـة التحليـل والتركيـب الإيـديولوجيين، مؤكـدا الـدور الهـام الـذي تلعبـه مؤسسـات المجتمـع المـدني فـي خلـق ثقافـة جماهيريـة تتقبـل الهيمنـة السياسـية للطبقـة المسـيطرة علـى أجهـزة الدولـة. حيـث يـرى بـأن كـل طبقـة اجتماعيـة تخلـق مثقفيهـا العضـويين الـذين ينتمـون إليهـا انتمـاء الجـزء إلـى الكـل، ويقومـون بالـدفاع عـن مصـالحها، وينشـرون وعيهـا وتصـورها عـن العـالم (غرامشـي، ١٩٧٢، ١٤). والمثقـف العضـوي هـو الـذي يقنـع أفـراد الطبقـة بـأنهم يشـكلون طبقـة، وأن مصـالحهم واحـدة، وأنهـم يملكـون تصـورا للعـالم متجانسـا ومسـتقلا بذاتـه، وأن هـذا التصـور يجـد تعبيـره الأوفـى فـي وظيفـة تتجسـد تاريخيـا وفـي وضـع محـدد. (بيـوتي، ١٩٧٥، ١٩)

إن كـل إنسـان جمعـي بتعبيـر "**غرامشـــي**" يتحـدد تصـوره للعـالم بانتمائـه الاجتمـاعي إلـى تجمـع بشـري يحتـل موقعـا معينـا فـي بنيـة الانتـاج، ويتقاسـم أعضـاؤه كيفيـات التفكيـر والاحسـاس والفعـل نفسـها. وهكـذا لا يكـون تصـور الفـرد للعـالم إلا ترجمـة فرديـة ذاتيـة لتصـور جمعـي طبقـي للعـالم، لأنـه تشـربه عبـر سـيرورة تنشـئته الطبقيـة. وهـذه هـي الإيـديولوجيا التـي تكتسـب مـع "**غرامشـــي**" معنـا إيجابيـا مخالفـا للمعنى السلبي الذي طوره "**ماركس**".

وأفـراد المجتمـع لا يتـأثرون بمحـيطهم وتـاريخهم الحاضـر فقـط، بـل يتـأثرون بتصـورات المجتمعـات السـابقة للعـالم، التـي تسـتمر علـى شـكل ترسـبات. وهنـا يـأتي دور المثقفـين بصـنفيهما، المثقفـين الكبـار الـذين يبـدعون الإيـديولوجيات، ويعملـون علـى نقـد ومراجعـة إيديولوجيـة طبقـتهم بحيـث يحققـون التنـاغم والانسـجام بـين الماضـي

والحاضر، والمثقفين الشراح الذين يقومون بنشر تلك الايديولوجيا بين الناس وهذه هي العملية الأهم بالنسبة إلى "**غرامشي**". (محمد، ٢٠٠٤، ١٣١)

وعندما يتعلق الأمر بالمثقفين المرتبطين عضويا بالطبقة السائدة، فإن دورهم يكبر ويتسع، لأنهم يشكلون في هذه الحالة المثقفين السائدين الذين يمارسون وظيفة السلطة، ووظيفة المعرفة؛ فيجتهدون في تنظيم الهيمنة الاجتماعية والسياسية، من خلال الارتباط بمستويي البنية الفوقية: المجتمع المدني والمجتمع السياسي. ليس المثقفون العضويون في حالتهم هذه أكثر من موظفين لدى الطبقة المسيطرة، أو خبراء في إضفاء الشرعية على الطبقة الحاكمة (فرح، ١٩٩٠، ٣٢٠). وعندما يعجز المثقفون السائدون على فرض رؤيتهم وتصورهم للعالم على باقي الفئات الأخرى، فإن ذلك دليل على أن الطبقة الاجتماعية التي يرتبط بها هؤلاء المثقفين تعيش أزمة، وأنها تسير في طريق الانهيار. وبذلك يتحولون إلى مثقفين تقليديين.

إن المثقفين التقليديين هم المثقفون العضويون للطبقة المنهارة، مما يعني أن النظام الاجتماعي الحالي لم ينتجهم بل ورثهم، وهذا ما يضعهم في صدام مع المثقفين العضويين الجدد، المدافعين عن مصالح الطبقة الحاكمة الجديدة. وفي خضم هذا الصراع تحاول الطبقة الحاكمة احتواء وتمثل المثقفين التقليديين، إما باستعمال قوة إكراه الدولة، وإما باستعمال الاغراء والامتيازات، وإما بقدرة مثقفيها العضويين على النقد والحجاج والبرهنة والاقناع، وإما باستعمال هذه الوسائل مجتمعة، وهذا ما يسهل ويعزز سيطرتها وهيمنتها على المجتمع، حيث تفرض على المثقفين التقليديين إدخال تعديلات على مواقفهم وتصوراتهم للعالم. (محمد، ٢٠٠٤، ١٥٧-١٥٨)

إن الزعامة السياسية عند "**غرامشي**" تمثل نسيجا مكونا من القوة والرضى، السيطرة والهيمنة، العنف والقبول. وهذا القبول لا يتحقق إلا عبر هيمنة المثقفين العضويين على مؤسسات المجتمع المدني، أي على المؤسسات الإيديولوجية للدولة. ففي المجتمعات الغربية، لا تعتمد البورجوازية في إعادة إنتاج سيادتها داخل الفضاء الاجتماعي على القوة والضغط والإكراه أو التدخل الشرعي للدولة. بل تعتمد كذلك على رضى المحكومين واعترافهم بشرعية قيادتها، من خلال هيمنتها على مؤسسات المجتمع المدني، وهو الطرح الذي سيطوره "**ألتوسير**" و"**بورديو**" فيما بعد...

وهكذا يختلف "**غرامشي**" عن كل من" **لينين**" **و** "**لوكاش**" الذين يعتبران أن الهيمنة الإيديولوجية تتم بعد الوصول إلى السلطة، وأنها تستخدم في ذلك أجهزة

الدولة السياسية التي تشتغل بالعنف. كما أن فكرة التحليل والتركيب الإيديولوجيين تفيد بأن الإيديولوجيا مكون ضروري للمجتمع، ولا تنتهي بنهاية المجتمع الطبقي كما يذهب إلى ذلك "**ماركس**". من جانب آخر فإن "**غرامشي**" خلافا "**لماركس**" و "**لوكاش**" لا يعتبر الماركسية علما، وإنما هي تعبير عن الوعي الإيديولوجي للبروليتاريا في أرقى صورة، وأن مصداقيتها نابعة عن تعبيرها الصحيح عن هذا الوعي، وليس لأنها علم مثل العلوم الطبيعية كما حاول " **إنجلز** " **(Engels)** أن يثبت ذلك. هذه الأطروحات سيقوم "**لويس ألتوسير**" **(Louis Althusser)** بتطويرها وتعميقها، ولا سيما فيما يتعلق بالنظرة البنائية للإيديولوجيا، والدور الذي تؤديه أجهزة الدولة الإيديولوجية في تكريس هيمنة الطبقة البرجوازية.

في ستينيات القرن الماضي، ظهر المفكر الماركسي الفرنسي "**ألتوسير**"، واعتبر ممثلا للاتجاه البنائي في الفكر الماركسي، وإن كانت بوادر هذا الفكر تظهر كما رأينا في نظرة "**غرامشي**" للإيديولوجيا. و"**ألتوسير**" مثل "**غرامشي**" كان ضد أي مفهوم للإيديولوجيا كوعي زائف، فهو لم يهتم بإمكانية زيف الإيديولوجيا، ولكنه اهتم بالدور الذي تلعبه في تشكيل الوعي الزائف لدى الطبقة المستَغلَّة.

يرى "**ألتوسير**" أن الإيديولوجيا تمثل "نظاما من التخيلات، الأساطير، الأفكار، والتصورات التي تملك وجودا ودورا تاريخيا داخل المجتمع. وهي تتميز عن العلم من خلال تفوق الوظيفة التبريرية فيها على الوظيفة المعرفية. ففي كل مجتمع يوجد نشاط اقتصادي، ونظام سياسي وأشكال إيديولوجية (الدين، الأخلاق، الفلسفة...). إن الإيديولوجيا تشكل جزءا لا يتجزأ من هذا الكل الاجتماعي، وهي تمثل النَّفَس الذي لا تستطيع المجتمعات الإنسانية الاستغناء عنه في حياتها التاريخية. (Boudon, 1986,31)

ويقسم "**ألتوسير**" الإيديولوجيا من حيث أدوارها الاجتماعية إلى إيديولوجيا عامة وأخرى خاصة. تقوم الإيديولوجيا العامة بتحقيق وضمان تماسك المجتمع من خلال تشكيل الأفراد عبر المؤسسات الإيديولوجية، وهي بذلك تمثل الإسمنت الذي يتسرب إلى كافة أجزاء البناء الاجتماعي ويحقق تماسكه. وبالتالي فإن الإيديولوجيا العامة لا بد أن توجد في كل المجتمعات طبقية كانت أو غير طبقية، وهو في هذا يختلف مع "**ماركس**" ويتفق مع "**غرامشي**". أما الدور الثاني للإيديولوجيا فهو خاص بالإيديولوجيا ضمن إطار المجتمع الطبقي، وضمن إطار الإيديولوجيا العامة، حيث تعبر عن الانقسام الطبقي، وتعمل على استمرار سيطرة الطبقة السائدة، وهذه الإيديولوجيا الخاصة تتغير حسب المرحلة التاريخية، وهو هنا يتفق مع "**ماركس**".

اجتهد "**ألتوسير**" في توضيح الدور الذي يلعبه النظام التربوي في إعادة إنتاج قوى الإنتاج، بما يسمح باستمرار هيمنة الطبقة البرجوازية الحاكمة، وذلك من خلال عمليتين هما: إعادة إنتاج المهارات الفنية التي تسمح بالحصول على قوة عمالة فعالة. وإعادة إنتاج إيديولوجية الطبقة الحاكمة، من خلال تنشئة العمال على الاعتقاد بهذه الإيديولوجيا وتصوراتها العامة. لقد كان "**ألتوسير**" مؤمنا بأن الطبقة الحاكمة لا يمكنها أن تؤمّن بقاءها في السلطة من خلال الاشتغال الحصري بالعنف، فهي بحاجة ماسة إلى السيطرة الإيديولوجية التي تعمل على خلق الوعي الطبقي المزيف، الذي يجعل الطبقة العمالية خاضعة لها، مقتنعة بطبيعة وضعها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، مؤمنة بأنها لا تملك وسائل التحدي التي تمكنها من الإطاحة بالطبقة الحاكمة (عبد الرحمن، ٢٠٠٢، ١٥٠). أما عن الوسائل والميكانيزمات التي تحقق لها ذلك، فتتمثل في السيطرة على أجهزة الدولة الإيديولوجية، التي برغم استقلالها عن أجهزة الدولة القمعية، وبرغم انتمائها إلى الفضاء الخاص، إلا أنها تضطلع بدور هام في حقن الجماهير بالإيديولوجيا الضرورية لإعادة إنتاج علاقات الهيمنة السائدة. وتتمثل في: (سبيلا وبنعبد العالي، ١٩٩٩، ٤٧)

-الجهاز الإيديولوجي الديني للدولة (نظام الكنائس المختلفة).
-الجهاز الإيديولوجي المدرسي للدولة (نظام المدارس المختلفة الخاصة والعمومية).
-الجهاز الإيديولوجي العائلي للدولة.
-الجهاز الإيديولوجي القانوني للدولة.
-الجهاز الإيديولوجي السياسي للدولة (النظام السياسي وفئة الأحزاب المختلفة).
-الجهاز الإيديولوجي النقابي للدولة.
-الجهاز الإيديولوجي الإعلامي للدولة (الصحف، الراديو، التلفزة...).
-الجهاز الإيديولوجي الثقافي للدولة (الآداب، الفنون الجميلة، الرياضيات...).

يميز "**ألتوسير**" بين أجهزة الدولة القمعية، وهي الحكومة والجيش والمحاكم. وأجهزتها الإيديولوجية التي تعمل بالقوة الناعمة من أجل تشكيل اللاّوعي الثقافي لدى الناس. فالأولى تعمل أساسا بالقوة والعنف، أما أجهزة الدولة الإيديولوجية فتعمل أساسا بالإيديولوجيا وثانيا بالعنف. حيث تنهض بمهَمة تشكيل الذوات والهويات والمواقف بشكل غير مباشر، وعن طريق الرضى والقبول. ولكنها تستخدم العنف أيضا لفرض انضباط من هم تحت سلطتها، في الأسرة أو المدرسة أو الكنيسة. فلا وجود لجهاز ايديولوجي صرف. وهو في هذا التمييز، إنما يعيد إنتاج

الافكار الأساسية التي بنى عليها "**غرامشي**" نظريته في الهيمنة. والملاحظ أن "**ألتوسير**" قد أدرج الأدب أيضا ضمن الجهاز الايديولوجي الثقافي للدولة، فالنصوص الأدبية تعمل بطرق موارية وغير مباشرة لتشكيل الثقافة والقيم والسلوك، ولذلك يتحدد دور النقد الأدبي في الكشف عن الإيديولوجيا المتضمنة في النصوص الأدبية، وتفكيك الطبقات اللّاواعية للثقافة التي تشكل هويات الناس في المجتمع. (هوكس، ٢٠٠٠، ١٠٧)

ولكي يقوم أي جهاز إيديولوجي بوظيفته الإيديولوجية بكفاءة عالية، لابد أن يقدم نفسه باعتباره محايدا وموضوعيا، وهو ما ينطبق بشكل خاص على المدرسة، باعتبارها الجهاز الإيديولوجي الأول في الدولة البورجوازية. فالمدرسة تأخذ طابع الحيادية والموضوعية بدرجة شديدة جدا، حيث تكشف عن ذاتها باعتبارها مكانا لنقل المعارف، وتربية النشء، وإعدادهم للمستقبل. في حين أنها تمثل خير وسيلة لترتيب الأفراد منذ الصغر على السُلّم الطبقي القائم داخل المجتمع. وهكذا يتضح أن الايديولوجيا من منظور "**ألتوسير**" سابقة على الوجود الفردي، "فحين يأتي الفرد العياني إلى الوجود، تكون الايديولوجيا قد حددت سلفا مجموعة الأدوار التي سيوضع هذا الفرد في خانتها". (هوكس، ٢٠٠٠، ١٠٠-١٠١)

ويأتي "**بيير بورديو**" (**Pierre Bourdieu**) في كتابه الهام "إعادة الانتاج"، ليؤكد هذا الطرح، معلنا أن الغايات الحقيقية للمؤسسة التربوية في مجتمع منقسم طبقيا، لا تقتصر على تلقين الأفراد جملة من المعارف والمهارات اللغوية والفكرية والسلوكية المتخصصة، في ظل تعميم ديمقراطية التعليم، وإعطاء الحرية الكاملة للفرد في اختيار الشعبة التي تناسب مواهبه ومؤهلاته. حيث أنها تعمل وبشكل جوهري على إنتاج وإعادة إنتاج المجتمع وفق صورة التباين الطبقي الكامنة فيه. فالمدرسة عبر آليات الاقصاء والاصطفاء التي تمارسها، تحدد الموقع الاجتماعي للفرد في المجتمع، مستخدمة العنف الرمزي الذي يسمح للطبقة المهيمنة بفرض معاييرها الثقافية على الطبقات الأخرى وفق آليات من التعسف الثقافي.

فالشروط التربوية المعلنة داخل المؤسسة التربوية، تقوم ظاهريا على تثمين الجدارة والاستحقاق والقدرات والمواهب الفردية، عبر نظام من الاختبارات الاصطفائية. غير أنها واقعيا تعمل على رفع حظوظ التفوق والنجاح لأبناء الطبقات المهيمنة في المجتمع على حساب أبناء الطبقات الكادحة. كما أنها في أدائها لوظيفة التطبيع الثقافي، تعمل على فرض معايير الثقافة البرجوازية، وتوظف مضامين البرامج والمناهج التربوية لترسيخها وتعزيزها، دون أن تأخذ بعين الاعتبار

أن ثقافة الطبقة المهيمنة لا تمثل سوى واحدا من بين عدة خيارات ثقافية طبقية ممكنة في المجتمع. وهكذا تتكامل الوظيفة الداخلية للمؤسسة التربوية بوصفها تطبيعا برجوازيا، مع وظيفتها الخارجية التي تتمثل في تأكيد هيمنة الطبقة البرجوازية. (بورديو وباسرون، ٢٠٠٧، ٣٦٠)

ينجح الاصطفاء التربوي في انتخاب أبناء الطبقات العليا، بالنظر إلى تجانس رأسمالهم الثقافي مع الثقافة السائدة داخل المؤسسة التربوية. فطرق تعبيرهم، وأساليب كتابتهم، وتنوع خبراتهم، وثراء رصيدهم الرمزي الذي اكتسبوه من واقع تنشئتهم العائلية، تلعب الدور الجوهري في تعميق حظوظهم في النجاح الدراسي. بخلاف أبناء الطبقات الدنيا، الذين يواجهون صعوبات تعلمية تعرقل مسارهم التعليمي، نتيجة التعارض الواضح بين ثقافتهم الطبقية والثقافة المعرفية السائدة داخل المؤسسة التربوية. مما يعني أن الاخفاق أو التعثر الدراسي الذي عادة ما تنسبه المؤسسة التربوية لمواهب الفرد وقدراته الشخصية، يرتبط بشكل وثيق بالأبيتوس (**Habitus**) السائد في وسطه الطبقي، والذي يحدد مستوى نجاحه في تمثل المعايير التربوية السائدة داخل النسق التعليمي. (بورديو وباسرون، ٢٠٠٧، ١٨٧-١٨٩)

وينتهي "**بورديو**" إلى التأكيد على الوظيفة الايديولوجية للمؤسسة التربوية، التي تعمل بصورة خفية وذكية على تبرير اللاّمساواة الاجتماعية تربويا. فالطبقات المهيمنة في سعيها للحفاظ على مواقعها، تعمل على انتقاء ما يتناسب ومصالحها من الدلالات والمعاني والرموز، التي تصوغها بطريقة مقنّعة في شكل معايير للاصطفاء المدرسي، ثم تعمل على فرضها في الحقل الرمزي التربوي، بحيث يتم إقصاء أبناء الطبقات الدنيا بصورة شرعية ودون اللجوء إلى استخدام القوة العلنية، لتتحقق بذلك عملية إعادة إنتاج التراتب الاجتماعي.

لقد اجتهد "**ألتوسير**" و "**بورديو**" في الكشف عن الوظيفة التبريرية للإيديولوجيا، من خلال التأكيد على الدور الهام الذي تلعبه المؤسسات الايديولوجية للدولة لاسيما التربوية والاعلامية والدينية منها، في إضفاء الشرعية على الهيمنة الطبقية، وإعادة إنتاج التراتب الطبقي بصورة تقبلها الطبقة الخاضعة وتذعن لها، بالنظر إلى طابع الشرعية والحياد الذي يغلفها. وتأتي "**حنة أرندت**" لتكشف بالمقابل عن قدرة أجهزة الدولة القمعية على توظيف الايديولوجيا لتبرير إرهاب الدولة، وتكريس هيمنتها الشمولية باستخدام القوة العلنية، مما يعطي للإيديولوجيا أبعادا جديدة.

المبحث السادس: الإيديولوجيا كأداة للهيمنة الشمولية

في كتابها "أسس التوتاليتارية" المنشور عام (١٩٥١)، والذي يعد واحدا من المراجع الكلاسيكية الكبرى في دراسة ظاهرة" النازية الألمانية" و"الستالينية الروسية"، تؤكد "**حنة أرندت**" (**Hannah Arendt**) قيام الدولة الشمولية على أركان ثلاثة هي: الإيديولوجية، العنف، والإعلام، بحيث تمثل الإيديولوجية أهم ركن فيها. فوسائل الإعلام ليست بأقل أهمية في أكثر الأنظمة ديمقراطية وشرعية، كما أن الدولة التي تمارس العنف، بما في ذلك أشد أنواعه وأشكاله قسوة، ليست شمولية بالضرورة. والشيء نفسه ينطبق على الدولة التي يمكنها أن تستعين برؤية إيديولوجية قوية ومنظمة وواسعة الانتشار، دون أن تكون بالضرورة دولة شمولية. فما هي الأطر المعرفية للإيديولوجية الشمولية تحديدا؟

تؤكد "**أرندت**" أن خصوصية الدولة الشمولية تكمن في سيادة نوع خاص من الإيديولوجية المتوغلة في صلب بنية الدولة وأجهزتها، وهي إيديولوجيا يطبعها التطرف الفكري، وادعاء العصمة، واحتكار الحقيقة، والانغلاق على الذات، وتحويل الجماهير إلى قطيع يتسم بالإخلاص التام للدولة والزعيم، والانضباط الحديدي، والطاعة المطلقة، والعماء في تنفيذ الأوامر، والاستعداد للتضحية غير المحدودة من أجل انتصار الأمة. وتحتل كل من نظرية العرق والمادية التاريخية موقعاً خاصاً في شحن الجماهير وتعبئتها، وفي تبرير جرائم الارهاب الشمولي، وفي إضفاء الشرعية على استخدام السلطة لكل الوسائل والأساليب التي تتيح تثبيت وتوسيع نظام الواحدية الصارم، عبر السيطرة على وسائل الإعلام، والمؤسسات الإيديولوجية، ومؤسسات الضبط السياسي، ومؤسسات الاقتصاد المركزي المخطط، ووضع سياسة خارجية علنية تستهدف الهيمنة على العالم. (أرندت، ٢٠١٦، ٢٤٦)

تنهض الإيديولوجيا الشمولية على قناعة راسخة بأنها الوحيدة التي تمتلك المعرفة والفهم الصحيحين لمتطلبات الدولة والمجتمع واحتياجاتهما في الماضي والحاضر والمستقبل. وتحقيق هذه المتطلبات يستوجب امتلاك السلطة الشرعية التي تتيح إحداث التغيير الذي يتوافق مع هذه المعرفة وهذا الفهم. وسواء كانت الايديولوجيا الشمولية عرقية أو شيوعية أو غير ذلك، فإنها تمثل القاعدة الأساسية التي تعتمد عليها السلطة الشمولية في تبرير مشروعية ممارساتها، وفي وضع آليات حكم ناجزة لا يمكن مراجعتها، لأن فكرة المراجعة ذاتها، تعني المساس بأصول الإيديولوجية الحاملة لها. (أرندت، ٢٠١٦، ٢٥١)

تبعا لهذا المنظور الايديولوجي المغلق، تحتكر النظم الشمولية المسؤولية الكاملة عن جميع تفاصيل الحياة الحاضرة والمستقبلية لكل من يرزح تحت رايتها، عبر الاضطلاع بكل نواحي الحياة السياسية والفكرية والاقتصادية والدينية والعلمية والثقافية وغيرها، بما فيها الحياة الشخصية لأفراد المجتمع كافة. وتترجم هذا الاضطلاع عبر رقابة ومتابعة كاملة تصل حد الهوس بضرورة الضبط والتنظيم والتحكم والاطلاع، وكل ما من شأنه أن يكرس الاحتكار، بدعوى المسؤولية الكاملة تجاه الفرد والمجتمع والدولة. كما تخص نفسها بحق الاختيار والقدرة على اتخاذ القرارات الصائبة والصحيحة، وفرضها بالإكراه على أرض الواقع. (أرندت، ٢٠١٦، ١٤٤)

إن القوانين التي تستند إليها النظم الشمولية هي قوانين الطبيعة (النازية) أو قوانين التاريخ (الستالينية)، وهي في كل ممارساتها إنما تطيع هذه القوانين طاعة تامة، بصرف النظر عن مسلك الجماهير التي ينبغي أن تخضع لها خضوعا سلبيا. وطالما أن قانون الطبيعة يوجب القضاء على الأعراق الدنيا، وأن قانون التاريخ يقضي بزوال بعض الطبقات في خضم صراعها الطبقي، كان العنف هو اللغة التي تستخدمها النظم الشمولية. إن الارهاب الشمولي ما هو إلا تحقيق لقانون الحركة في الطبيعة والتاريخ، من خلال الاضطلاع بتنفيذ أحكام الاعدام التي تلفظها الطبيعة ضد الأعراق الدنيا، أو التاريخ ضد الطبقات المستغلَّة. مثل هذا الارهاب بحاجة إلى تهيئة الأفراد لأداء دور الضحايا أو الجلاّدين، وهذه التهيئة ذات الوجهين هي الايديولوجيا (أرندت، ٢٠١٦، ٢٥٨). إنها الفكرة التي تتيح تفسير حركة التاريخ على أنه مسار فريد ومتماسك: مسار الصراع ضد الأعراق الدنيا، أو مسار صراع الطبقات المستغلة ضد الطبقات المستغلة. (أرندت، ٢٠١٦، ٢٦٠)

وتؤكد "**أرندت**" أن النظم الشمولية لم تكن في بداياتها حركات أقلية، نجحت في الانفراد بالسلطة بالاعتماد على دعاية سياسية كاذبة، فلا "**هتلر**" ولا "**ستالين**" كان بإمكانهما الوصول إلى السلطة لولا حصولهما على ثقة الجماهير وتأييدها (أرندت، ٢٠١٦، ٢٦٠). فالإيديولوجيا الشمولية لا تمثل من وجهة نظرها وعيا زائفا، كما أنها لا تعبر عن مصالح طبقية خاصة تنتظم خلفها جماهير بعينها. وللكشف عن دواعي التأييد الشعبي الواسع لإيديولوجيات نشرت الرعب لسنوات طويلة، وارتكبت مجازر بشعة بحق ملايين الأبرياء، تحلل "**أرندت**" طبيعة الطبقات الاجتماعية وآليات انهيارها في ألمانيا وروسيا، وظهور النزعات السلافية الروسية والجرمانية

الألمانية، موضحة أن تضخم أعداد "الجماهير" في تلك المجتمعات، كان نتيجة مباشرة لتصدع المجتمع الذي أعقب الهزيمة العسكرية الالمانية في الحرب العالمية الاولى، والفوضى السياسية في روسيا. فوسط هذا الوهن الشعبي وتفسخ الروابط الاجتماعية وغياب الأهداف الإيديولوجية التي توحد الأفراد، أخذت تتنامى نفسية رجل الجمهور، التي تجسدت في اختفاء الاختلافات الفردية، وتحطيم المصالح المشتركة، بحيث بلغ التذرير مبلغاً لا يلجمه إلا الشعور القومي المتشدد. وسط هذا المناخ الخاص، نجحت النظم الشمولية في إعادة تسييس الجماهير، وإخضاعها للزعيم الملهم، ثم صياغة الدولة ونظمها الرمزية والثقافية والتشريعية تحت هاجس الطهارة والنقاء وتحقيق مجتمع العدالة الاجتماعية. (أرندت، ٢٠١٦، ٢٦٩)

في الدولة الشمولية إذن، تجري عملية تكييف مستمرة للذاكرة الجماعية، واعادة صياغة الوعي الاجتماعي، عبر التلقين العقائدي، وممارسة الارهاب الشمولي لتحقيق مبادئ الإيديولوجية وإثبات مزاعمها. ففي النظام البلشفي السوفيتي مثلا، استخدم "**ستالين**" في تصفية الطبقة الوسطى، المشَكَّلة من كبار المزارعين وملاك الأراضي، سياسة التجويع والتهجير وفرض الاشغال الشاقة. كما قام بتصفية طبقة العمال، عبر تحطيم كل تضامن وكل وعي طبقي بمصالح العمال المشتركة. وفي عام ١٩٣٨ تحولت الطبقة العاملة السوفيتية الى جيش عرمرم من المحكومين بأغلال العبودية، وتم التخلص من الأرستقراطية الإدارية والعسكرية والثقافية، مما حرم المشاريع الصناعية الكبرى من طبقة المدراء ومهندسي المعامل والتقنيين الروس، وبلغ عدد ضحايا التطهيرات المستمرة خمسة عشر مليون انسان.

إن قوة الحملة الدعائية السياسية للدولة الشمولية تكمن من منظور "**أرندت**" في قدرتها المتعاظمة على قطع الصلة ما بين الجماهير والعالم الواقعي، واقامة عالم متوهم، متسق العناصر ومنسجم مع عقائد الحزب (النازي أو البلشفي). الغرض من ذلك تجنيد الأتباع وتنظيم قمع الحياة الداخلية والخارجية للأفراد والجماعات عبر تحويل العالم البشري الى عالم من الاستقرار المزيف، ما يفقد الافراد القدرة على التمييز بين العقلانية واللاّعقلانية، بين الخير والشر، بين الحق والباطل. فتصبح الاشياء كلها تمتاز بالاتساق المطلق ضمن هذه المنظومة الدعائية العقائدية المغلقة، التي يؤلَّه فيها الزعيم (**هتلر** أو **ستالين**)، ويوضع فوق مستوى البشر، فهو الزعيم المعصوم، وهو مرشد الشعب وقائده نحو الفردوس الأرضي، حيث كان (**هتلر** و**ستالين**) يعدان نفسيهما نبيا ذلك العصر. (أرندت، ٢٠١٦، ٢٦٨)

وتحلل "**أرندت**" آليات ممارسة النظم الشمولية للسلطة السياسية وتحكمها المطلق بالمجتمع، حيث ترى أن أبرز مميزاتها هي الأحادية في النسق الايديولوجي، والوحدة بين الحزب الواحد ومؤسسات الدولة، مع تحطيم البنية التشريعية السابقة واستبدالها بقوانين وضعية يجسدها قانون التاريخ بالنسبة للشيوعية الستالينية، وقانون الطبيعة بالنسبة للنازية العرقية. وتبين "**أرندت**" ان الدولة الشمولية تقوم على طابع عديم الشكل، تنقسم السلطة فيه الى سلطة ظاهرة وسلطة واقعية، بحيث يعد الجهاز الحكومي في الدولة النازية وكذلك الستالينية، الواجهة التي تتوارى خلفها السلطة الواقعية التي يمارسها الحزب، وتشكل حماية له. (أرندت، ٢٠١٦، ١٤٨)

لقد كانت الآلة الإدارية إبان الرايخ الثالث قائمة على الازدواجية في الخدمات على كل المستويات، وقد استطاع النازيون إحكام سيطرتهم التامة على جهاز الدولة، عبر إيكال كل وظيفة في إدارة جهاز الدولة الى أعضاء الحزب الحاكم، بالإضافة إلى الموظف الرئيسي فيها. فضلاً عن ذلك، فقد أنشأ النازيون أجهزة بديلة تنافس أجهزة الدولة (أرندت، ٢٠١٦، ١٥٥). أما جهاز الحكم البلشفي السوفياتي فقد اعتمد على إنشاء المزيد من الأجهزة المتداخلة، في سبيل دفع مراكز السلطة القديمة الى الظل. وتتم معالجة التضخم في تلك الأجهزة البيروقراطية عبر التصفية المرحلية التي كانت تحققها حملات التطهير المتوالية. حيث تشير "**أرندت**" إلى وجود ثلاثة تنظيمات منفصلة بعضها عن البعض داخل جهاز الدولة السوفيتية كانت تمارس الحكم: جهاز السوفيات، وجهاز الحزب، وجهاز مفوضية الشعب للشؤون الداخلية. وكل واحد من الأجهزة الثلاثة يمتلك دائرة في الاقتصاد، ودائرة سياسية، ودائرة عسكرية (أرندت، ٢٠١٦، ١٥٨). إنها تنظيمات تشبه "حبة البصل"، مشكلة من دوائر متتالية أكثر فأكثر سرية، مما يسمح للدائرة الأكثر عمقا أن تكون سرية بشكل مطلق لأنها محمية كليا، وبعيدة عن الأضواء، بفضل الأعضاء الذين يشكلون الحلقات الخارجية ويفصلون هذه الدوائر عن بعضها البعض. القاعدة الوحيدة ضمن هذه التركيبة المعقدة، هي أنه كلما كان الجهاز محاطا بالكتمان تزايد نفوذه، وكلما كان عرضة للتجسس تضاءل نفوذه. من ليس بالداخل يكون مستبعدا، وكل من ليس بصديق فهو عدو. (أرندت، ٢٠١٦، ١٥٩)

وتحلل "**أرندت**" طبيعة الأجهزة الأمنية والمخابراتية ودورها في أدلجة الفضاء العمومي، من خلال جعل جهاز البوليس السري أداة الحكم المطلق، عبر خلق خلايا داخل بنية المجتمع قادرة على التقاط معلومات عن الأعداء وإرسالها الى

هرمية السلطة الأمنية، وصناعة أجهزة مرتبطة بالحزب الواحد الحاكم، وأجهزة مرتبطة بجهاز الحكومة، وأجهزة أخرى سرية تتجسس على تلك الأجهزة. ان وسائل السيطرة الشمولية تقوم على القمع السياسي، وتدمير التقاليد الاجتماعية والسياسية والتشريعية، وتحويل الطبقات الاجتماعية الى حركات جماهيرية، فضلاً عن نقل مركز السلطة من الجيش الى أجهزة الشرطة (أرندت، ٢٠١٦، ١٥٨). ونتيجة لهذه الشبكة من التنظيمات الأمنية يجري تفكيك الروابط الاجتماعية لتحل محلها علاقات هلامية، يتحول فيها الأفراد إلى كائنات فاشلة، مغتربة، ضائعة، بربرية، مسلوبة الإرادة. ومن أجل الحفاظ على هذه الحالية المرضية، تسهر الأنظمة الشمولية على منع ظهور أية جماعات مستقلة يمكنها أن تحرك وعي الجماهير، أيا كانت أهدافها: جماعات نقابية، سياسية، مهنية، عرقية أو حتى جماعات تهتم بحماية الحيوانات. وتعلن هذه الجماعات عدوا موضوعيا لها.

والشمولية لديها دائما "أعداء موضوعيون"، تم تعريفهم منذ البداية من قبل الإيديولوجية التي حددت فئات من البشر تدينهم القوانين الطبيعية أو التاريخية، فيحاربون وتتم تصفيتهم بغض النظر عن موقفهم من النظام. وهذه الفئة من الأعداء لا تنتهي، فكلما قضى النظام الشمولي على هؤلاء، فإن الهذيان الإيديولوجي يخترع آخرين. وتمثل معسكرات الإبادة رمزا لا يمكن محوه من تاريخ الإرهاب والرعب في الأنظمة الشمولية (أرندت، ٢٠١٦، ٢١٨). ففي المعسكرات لا توجد حدود للقمع والإرهاب، بحيث يتم القضاء بشكل متعاقب على الشخصية القانونية، والأخلاقية، والفردية للمعتقلين. وعندما تدمر هذه الشخصيات الثلاثة في الفرد، فإنه لن يبادر بأي قرار نابع من الوعي أو الضمير، ويتحول إلى "كلب من كلاب بافلوف" يساق إلى الموت، فلا يبدي أي مظهر من مظاهر الرفض أو المقاومة (أرندت، ٢٠١٦، ٢٣٣). وهنا بالذات تتبدى قوة الإيديولوجيا الشمولية.

يتضح مما سبق أن الايديولوجيا الشمولية من منظور "**أرندت**" لا تمثل وعيا زائفا بالمفهوم الماركسي، ولا تعبر عن مصالح طبقية خاصة كما يذهب إلى ذلك "**لينين**" و"**لوكاش**" و"**مانهايم**". إنها إيديولوجيا مجتمع بأسره كما يذهب إلى ذلك "**غرامشي**"، إلا أن هذه الايديولوجيا لا تخلق التضامن الاجتماعي، وإنما التذرير والتفتيت الذي يتحول الأفراد بموجبه إلى قطيع يمكن اقتياده دون مقاومة. كما أن خضوع الجماهير وولاءهم المطلق للزعيم، لا يتم باستخدام أجهزة الدولة الايديولوجية كما يؤكد ذلك "**غرامشي**" و"**ألتوسير**" و"**بورديو**"، وإنما بالاعتماد على أجهزة الدولة القمعية بالمقام الأول. وإذا كان الخضوع الذي يتحدث عنه هؤلاء يتم

عن طريق الرضى والقبول، فإن الخضوع الذي تتحدث عنه "**أرندت**" ناجم عن الخوف بالأساس.

وبعيدا عن الايديولوجيا كأداة للاستقطاب، التمييز، التبرير أو النقد، يأتي "**كليفورد غيرتز**" (**Clifford Geertz**) ليقدم مفهومه للإيديولوجيا، والذي ينهض بشكل أساسي على الوظيفة التجميعية لها.

المبحث السابع: الإيديولوجيا كأداة لتشكيل الهوية

يذهب "**غيرتز**" إلى أنه من السخرية أن يتحول مفهوم الإيديولوجيا إلى مفهوم مؤدلج بالكامل، بعد أن كان يشير إلى مجموعة من الطروحات السياسية النظرية البعيدة عن الواقع. فقد تحولت الإيديولوجيا من مفهوم تحليلي محايد إلى تهمة وشتيمة، مؤكدا أن العلوم الاجتماعية لم تطور حتى الآن مفهوما أصيلا غير تقويمي حيال الإيديولوجيا. (غيرتز، ٢٠٠٩، ٤٠٤)

وينتقد "**غيرتز**" مختلف التعاريف التي قدمت للإيديولوجيا في الفكر الغربي، مؤكدا أنها جميعا تعاريف إنتقاصية، مشبعة بالأحكام التحقيرية، الرامية إلى إبراز جوانب التشويه في الإيديولوجيا. فالإيديولوجيا من منظورها إما وعي زائف، أو هي قناع لإخفاء مصالح فئوية خاصة، أو وسيلة للاستقطاب وتمييز الأعداء من الأصدقاء، أو أنها نسق من الأفكار والمعتقدات التي تخاطب العاطفة لا العقل، أو أنها فكر شمولي دوغمائي لا يقبل النقد أو المراجعة... وبالمثل فإن من رفعوا شعار نهاية الإيديولوجيا استندوا في دعواهم إلى المجازر البشعة التي ارتكبتها النظم الشمولية للتقليل من دورها في الحياة الاجتماعية، فكانوا مثلهم مثل الملحدين المتطرفين الذي استندوا إلى جرائم محاكم التفتيش في رفضهم المطلق للدين. (غيرتز، ٢٠٠٩، ٤٠٩-٤١٠)

وينتهي "**غيرتز**" إلى أن جميع الدراسات التي تتناول الأفكار الاجتماعية السياسية، والتي تدين تلك الأفكار منذ البداية، واصفة إياها بالتشويه والتحيز، معرّضة هي أيضا لأن تطرح ضدّها الأسئلة نفسها. وعليه، يجتهد "**غيرتز**" في تقديم تصور مغاير للإيديولوجيا، مستفيدا من جوانب القصور التي طبعت المفهوم التقويمي لها.

في كتابه "تأويل الثقافات"، وفي الفصل الموسوم "بالإيديولوجيا كنظام ثقافي"، لا يستخدم "**غيرتز**" الإيديولوجيا بالمعنى الواسع الذي يوافق ما يصطلح عليه علماء الأنثروبولوجيا بالثقافة، أي كل مظاهر النشاط والانتاج الفكري والروحي في المجتمع. لأن الإيديولوجيا بهذا المنظور تعني الثقافة المهيمنة، أو الوعي الجمعي

بالمفهوم الدوركايمي. إنما يستخدمها بالمعنى الضيق، الذي ينهض على التمييز بين الثقافة كمعارف وخبرات، والثقافة كتوجيهات أخلاقية وسلوكية وكتأطير اجتماعي للفرد. ويمثل هذا المعنى المدلول الثقافي للإيديولوجيا، أو الوجه الايديولوجي للثقافة كما يذهب إلى ذلك "**محمد سبيلا**". إن وظيفة الايديولوجيا في هذه الحالة هي تزويد المجتمع والأفراد بهويتهم الجماعية المتميزة.

تكتسب الإيديولوجيا أهميتها من كونها نسق من الرموز والنماذج الدلالية، التي تقدم للمجتمع صورة عن نفسه تعكس هويته المتميزة، وذلك عبر مسار تاريخي تحكمه جملة من الأحداث التأسيسية. فالإيديولوجيا الأمريكية في سعيها إلى خلق وتشكيل الهوية الأمريكية المتميزة، توظف حرب الاستقلال الأمريكية لعام ١٧٧٥م بإنجازاتها وبطولاتها، باعتبارها الحدث المرجعي المؤسس للدولة الأمريكية الحديثة. والإيديولوجيا السوفياتية الحديثة تعود باستمرار إلى الثورة البلشفية لعام ١٩١٧م، كمرجع رئيسي يكسب كل الأحداث اللاّحقة معناها ودلالتها. وبالمثل فإن الايديولوجيا الفرنسية تستلهم نماذجها الدلالية من العودة الدائمة إلى الحدث المؤسس لفرنسا الحديثة، وهو الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩م. أما بالنسبة لدول العالم الثالث فأغلب إيديولوجياتها السياسية ترتكز على المرحلة الفاصلة بين النضال من أجل الاستقلال ولحظة الفوز بالاستقلال.

وقد تكون الأحداث التأسيسية التي تمنح الجماعة هويتها ثقافية بالأساس، فالمرجع الأساسي للدول العربية الاسلامية كدول مستقلة، وكأمة واحدة، هو زمن النبوة الفاصل بين عهدي الجاهلية والاسلام. وتمثل أحداث عصر النبوة والخلافة الراشدة أبرز الأحداث المؤسسة لهوية كل دولة على حدة، أو للأمة العربية والاسلامية ككل. بل إن كل دولة تجتهد في تكييف حدثها المؤسس اللاّحق مع هذا الحدث المؤسس المرجعي المشترك الذي هو ظهور الاسلام. وبالنسبة للدول الأوروبية، فإن الحدث المؤسس المشترك في إيديولوجيتها الثقافية هو ظهور المسيحية وانتشارها، إلا أن هذه المرجعية قد أخذت في التضاؤل مع تقدم الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية في أوروبا. (ريكور، ٢٠٠٢، ٣٥١-٣٥٢)

في كل مجتمع إذن مجموعة أحداث تأسيسية ثقافية أو سياسية، يتم باستمرار الرجوع إليها، والاحالة عليها، وإعادة تأويلها، بهدف ترسيخ ذاكرة جماعية مشتركة لأعضاء الجماعة. ووظيفة الايديولوجيا هي تزويد الأفراد، والمجتمع، والأمة ككيان اجتماعي بهذه الهوية الجماعية المتميزة. فالإيديولوجيا تحدد للفرد من هو، وتحدد للجماعة من هي، مع ما يترتب عن ذلك من أدوار ورسالة تاريخية وأهداف

مستقبلية. فيشعر الجميع بقوة الانتماء للمجموعة، وبأن وجودهم رهن بها، وبأن مصيرهم متوقف عليها، وبأن أهدافهم هي أهدافها.

بهذا المنظور، يؤكد "**غيرتز**" أن المستوى الاجتماعي للإيديولوجيا يمثل أعمق مستوياتها، لأنه يتعلق ببناء المجتمع نفسه، حيث تتحول الإيديولوجيا إلى أداة صهر وعامل اندماج وتماسك لأعضاء الجماعة. مشيرا إلى أن كل التصورات التي تنظر إليها كوعي زائف، أو كقناع يخفي مصالح فئوية خاصة، أو كسلاح يستخدم في الصراع الطبقي، تجانب الأهم وهو دور الايديولوجيا الإدماجي الذي يمنح المجتمع هويته الرمزية، ويحافظ على وحدته وتماسكه. وفي مقابل الأبعاد الثلاثة التي يكتنفها المفهوم الماركسي للإيديولوجيا، يطرح "**غيرتز**" مفهومه الثقافي الذي يحمل وجهة نظر مقابلة تماما. فالإيديولوجيا لا تقدم رؤية مشوهة للواقع الاجتماعي، ولا تخفي مصالح طبقية خاصة. بل على العكس من ذلك تماما، إنها تقدم رؤية واضحة للتوترات الاجتماعية والنفسية الكامنة فيه، وتحاول توجيه مساره المستقبلي بحيث يتم امتصاص تلك التوترات. كما أن الايديولوجيا ليست أداة لإضفاء الشرعية على الطبقة المهيمنة، لأنها نظام من التمثلات المشتركة بين جميع أفراد المجتمع. وهي في الأخير لا تمثل نقيضا للعلم، بل موضوعا له. والانثروبولوجيا هي ذلك العلم الذي يسعى إلى تفسير سيرورة الصياغة الرمزية للإيديولوجيا، وأسلوب تمثلها واستدماجها من طرف الفاعلين الاجتماعيين. (Voirol, 2008, 13-14)

تنبعث الايديولوجيات في فترات التحول الاجتماعي، وهي الفترات التي يفقد فيها المجتمع مصادر الحس المشترك والشعور الجمعي، وتنهار فيها المعايير الرمزية السابقة لعدم قدرتها على تفسير الأوضاع الراهنة. فتظهر الإيديولوجيا لتستجيب لتهديد فقدان الهوية الاجتماعية، مقدمة أطرا رمزية جديدة تناسب التحول في الحياة السياسية والاجتماعية. يقول "**غيرتز**": "إن الإيديولوجيات هي خرائط لواقع اجتماعي تعتريه المشاكل، وهي قوالب لخلق الوجدان الاجتماعي. أما مسألة ما إذا كانت الخريطة دقيقة أو لا، أو كان الوجدان موثوقا فهذا سؤال آخر." (غيرتز، ٢٠٠٩، ٤٤٥)

وتأكيدا على الدور الإيجابي للإيديولوجيا في تحقيق التكامل الاجتماعي، يأتي إسهام "**بول ريكور**" (**Paul Ricœur**)الذي يجسد سعيه للتوليف بين المنظورين الماركسي والغيرتزي دون الخروج عن المنظور الثقافي للإيديولوجيا. فخلافا لـ"**غيرتز**" لا يسقط "**ريكور**" المفهوم الماركسي للإيديولوجيا، مؤكدا أنها تؤدي وظيفة

تشويه الوقائع وقلب الحقائق، كما تؤدي وظيفة تبرير السلطة بما هي آلية تلجأ إليها الطبقات الحاكمة والمسيطرة لإضفاء الشرعية على مخططاتها ومشاريعها. ولكنها تؤدي أيضًا وظيفة ثالثة إلى جانب وظيفتي التشويه والتبرير وهي وظيفة الإدماج، التي تمثل من منظور "**ريكور**" المستوى التحتي أو القاعدي للإيديولوجيا. إننا هنا إزاء بنية رمزية خاصة بالذاكرة الجماعية، تظهر بشكل خاص في استعمال الطقوس والاحتفالات التخليدية. فالنشاط الايديولوجي نشاط سيميائي بالأساس، يتم بوساطة العلامات والرموز التي تختلف معانيها من ثقافة إلى أخرى، والتي تلعب دورا حيويا في تأمين بقاء المجتمع، واعتزازه بهويته، بفضل الصور الثابتة التي يصنعها لنفسه وعن ذاته. (ريكور، ٢٠٠٢، ٣٤٧)

ويؤكد "**ريكور**" أن وظيفتي التشويه والتبرير لا تظهران إلا في المجال السياسي، حيث يتم اخفاء المصالح السياسية، وتبرير هيمنة الطبقات العليا على الطبقات الدنيا. ومع ذلك فإن هاتين الوظيفتين تعملان جنبا إلى جنب مع الوظيفة الإدماجية في الحفاظ على تكامل المجتمع واستقراره، وإضعاف حدة التناقضات الاجتماعية (Voirol, 2008, 15). فالصراع السياسي من وجهة نظره لا يعني انهيار اللحمة الاجتماعية التي تربط بين أفراد المجتمع الواحد، فقد تختلف التوجهات السياسية، وقد تتعارض المصالح الاقتصادية، ولكن ثمة دائما ذاكرة جماعية، وأنساق رمزية ومعايير ثقافية تجمعنا.

خاتمة:

يوضح العرض السابق التحولات النوعية التي عرفها مفهوم الأيديولوجيا في الفكر الغربي، فمن علم الأفكار، ذلك العلم الذي يُعنى بدراسة الأفكار من حيث أصلها وطبيعتها وتطورها، إلى تلك التصورات المثالية الخالية من المعنى، المفارقة لواقع الممارسة السياسية، وصولا إلى منظومة من الأفكار التبريرية التضليلية التي تهدف إلى إخفاء مصالح الطبقة البرجوازية، والدفاع عن شرعية النظام الرأسمالي. وهكذا يكتسي مفهوم الإيديولوجيا لأول مرة صبغة مادية قدحية.

عرف مفهوم الأيديولوجيا ضمن المنظور المادي تطورا ملحوظا عبر اسهامات رواد هذا الفكر، ففي الوقت الذي اعتبر فيه "ماركس" الايديولوجيا تمويها لحقيقة الوجود الاجتماعي وعلاقاته، ما يجعلها وعيا مقلوبا أو زائفا، وينفي عنها إمكانية الرؤية السليمة للواقع، نجد "لينين" وقد حافظ على جميع منطلقات أستاذه" ماركس"، مضيفا إليها بعدا جديدا ومهما، وهو ارتباط الأيديولوجيا بالمصالح الطبقية أيا كان موقع الطبقة في البناء الاجتماعي. ومن ثمة، فكما توجد إيديولوجيا برجوازية، توجد إيديولوجيا بروليتارية أيضا. وبعد أن كانت الأيديولوجيا

هي نقيض العلم عند "ماركس" أصبح بالإمكان الحديث عن أيديولوجيا علمية وأخرى غير علمية مع "لينين".

يأتي "لوكاش" ليحافظ على البعد الطبقي للأيديولوجيا عند "لينين"، مضيفا بعدا هاما افتقده منذ البداية الفكر الماركسي، وهو نسبية الوعي الطبقي، ما يعني أن الوعي الطبقي البروليتاري مثله مثل الوعي الطبقي البرجوازي معرض لأن يكون زائفا، متى فقدت البروليتاريا قوتها الراديكالية، وتراجعت عن تحقيق أهدافها النهائية. وهي النسبية التي ستتضح بعمق في أعمال "مانهايم" من خلال تأكيده على العلاقة الوثيقة بين الأفكار السياسية والأوضاع الاجتماعية، فطالما أن الأفكار السياسية هي تعبير عن مصالح تكوينات اجتماعية محددة، فإن النتيجة ستكون بالضرورة هي نسبية الحقيقة الاجتماعية، لأن كل فئة اجتماعية لا يمكنها أن ترى المجتمع إلا من موقعها الخاص الذي تحدده مصالحها الطبقية.

ويخطو "غرامشي" خطوة متميزة عندما يذهب إلى أن الأيديولوجيا ليست أيديولوجيا طبقة بعينها، ولكنها أيديولوجيا مجتمع، وبذلك يقتلع الأيديولوجيا من جذورها المادية، ويعطيها استقلالية وقدرة على التأثير على البناء التحتي. وكما تساهم الطبقة المسيطرة اقتصاديا بشكل كبير في تشكيل هذه الأيديولوجيا، تساهم كذلك الطبقة المستغلة اجتماعيا، ويظهر ذلك من خلال نشاط مختلف مؤسسات الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية، التي يشغلها أفراد من الطبقتين. هكذا يتحرر مفهوم الأيديولوجيا من الصبغة القدحية، ويتخذ مساحة أوسع بكثير من حدود الطبقة الاجتماعية.

ويجتهد "ألتوسير" ومن بعده "بورديو" في تعميق هذا الطرح، من خلال التأكيد على الدور الهام الذي تلعبه المؤسسات الايديولوجية للدولة لاسيما التربوية والاعلامية والدينية منها، في تشكيل الايديولوجيا العامة للمجتمع، وفي إضفاء الشرعية على الهيمنة الطبقية، وإعادة إنتاج التراتب الطبقي بصورة تقبلها الطبقة الخاضعة وتذعن لها، بالنظر إلى طابع الشرعية والحياد الذي يغلفها. وتأتي " أرندت" لتكشف بالمقابل عن قدرة أجهزة الدولة القمعية على توظيف الايديولوجيا لتبرير إرهاب الدولة، وتكريس هيمنتها الشمولية باستخدام القوة العلنية، مما يعطي للإيديولوجيا أبعادا جديدة.

وبعيدا عن الايديولوجيا كأداة للاستقطاب، التمييز، التبرير أو النقد، يأتي "غيرتز" ومن بعده "ريكور" ليقدم مفهومه للإيديولوجيا، والذي ينهض بشكل أساسي على الوظيفة التجميعية لها. فالإيديولوجيا لا تقدم رؤية مشوهة للواقع الاجتماعي، ولا تخفي مصالح طبقية خاصة. إنها تقدم رؤية واضحة للتوترات الاجتماعية، وتحاول توجيه المجتمع بحيث يستطيع تجاوز تلك التوترات.

صفوة القول؛ لقد شكل مفهوم الايديولوجيا موضوع نزاع إبيستمولوجي من حيث قدرته على التعبير عن حقيقة الواقع الاجتماعي. كما شكل بؤرة نزاع إيديولوجي من حيث علاقته بالمصالح السياسية والاقتصادية، وقدرته على التعبئة الجماهيرية، وفاعليته في تبرير الهيمنة السياسية، فضلا عن دوره في ترسيخ الهوية المجتمعية. وبقدر استعمالاته الواسعة في السياق الاجتماعي كما في السياق السياسي، بقدر ما أضحى مفهوما مشبعا بالمعاني، مثقلا بالدلالات. ويفسر "**غاستون باشلار**" **(Gaston Bachelard)** هذا التنوع في الرؤى والتعدد في الدلالات باختلاف المواقف الإيديولوجية لأصحابها، حيث يقول:" **الكتابة عن الإيديولوجيا عمل خطير، فكل تعريف للإيديولوجيا لابد أن يتضمن موقفا إيديولوجيا**" (Bachelard, 1976,11). لكن القراءة النقدية للتعاريف السابقة تكشف بعمق عن الوظائف المتعددة للإيديولوجيا، فهي أداة يمكن استخدامها بفعالية لكشف عيوب الآخر المعارض "الوظيفة النقدية"، ولإخفاء المصالح الاقتصادية والسياسية للطبقة المهيمنة "وظيفة التشويه"، ولتعبئة الجماهير وشحنها "وظيفة الاستقطاب"، ولإضفاء الشرعية على الطبقة المهيمنة " وظيفة التبرير"، ولتقوية اللحمة الاجتماعية "وظيفة الادماج". فالإيديولوجيا تؤدي جميع هذه الوظائف، ويتوقف بروز وظيفة بعينها على حساب الوظائف الأخرى بشكل كبير على طبيعة الحقبة التاريخية التي تهيمن فيها الإيديولوجيا، ونوعية التركيبة الاجتماعية، ودرجة الاستقرار السياسي، ومستوى تطور الأجهزة الإيديولوجية للدولة. ولذلك ننتهي إلى القول:" **الكتابة عن الإيديولوجيا عمل خصب، فكل تعريف للإيديولوجيا يكشف عن وظيفة من وظائفها المتعددة**".

قائمة المصادر والمراجع:

أولا/ باللغة العربية:

١. أحمد خليفة "وآخرون" (دس). *إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي*. دم: دار التنوير.

٢. أرندت، حنة. (٢٠١٦). *أسس التوتاليتارية*(ط ٢). ترجمة أبو زيد، أنطوان. لبنان: دار الساقي.

٣. بورديو، بيير و باسرون، جان كلود. (٢٠٠٧). *إعادة الانتاج: في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم* (ط١). ترجمة تريمش، ماهر. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

٤. بيوتي، جاك مارك. (١٩٧٥). *فكر غرامشي السياسي*. ترجمة طرابيشي، جورج. بيروت: دار الطليعة.

٥. تكسيه، جاك. غرامشي. (١٩٧٢). *دراسات ومختارات*. ترجمة محول، إبراهيم. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.

٦. ريكور، بول. (٢٠٠٢). *محاضرات في الايدولوجيا واليوتوبيا* (ط١). ترجمة رحيم، فلاح. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.

٧. عبد الرحمن، عبد الله محمد. (٢٠٠٢). *النظرية في علم الاجتماع* (ج٢). الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

٨. غيرتز، كليفورد. (٢٠٠٩). *تأويل الثقافات* (ط١). ترجمة بدوي، محمد. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

٩. فرح، نادية رمسيس. (١٩٩٠). المثقفون والدولة والمجتمع المدني. في: *غرامشي وقضايا المجتمع المدني*. دمشق: دار كنعان.

١٠. كارل ماركس وفردريك انجلز. (٢٠١٣). *الإيديولوجية الألمانية*: الفصل الأول المكتوب بين نوفمبر١٨٤٥ وأوت ١٨٤٦. ترجمة فؤاد ايوب، سوريا: دار دمشق.
١١. لوكاش، جورج. (١٩٨٢). *التاريخ والوعي الطبقي* (ط٢). ترجمة الشاعر، حنا. لبنان: دار الأندلس.
١٢. مانهايم، كارل. (١٩٨٠). *الإيديولوجيا واليوتوبيا: مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة* (ط١). ترجمة الديريني، محمد رجا عبد الرحمن. الكويت: شركة المكتبات الكويتية.
١٣. محمد، حيدر علي. (٢٠٠٤). *إشكالية المثقف عند غرامشي*. رسالة ماجيستير غير منشورة تخصص فلسفة. بغداد: جامعة بغداد.
١٤. محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي. (١٩٩٩). *الإيديولوجيا* (ط١). المغرب: دار توبقال.
١٥. هوكس، ديفيد. (٢٠٠٠). *الإيديولوجية*. ترجمة فتحي، إبراهيم. دم: المجلس الأعلى للثقافة.

ثانيا/ باللغة الأجنبية:

16. Destutt de Tracy (1905). *Projet d'éléments d'idéologie* (Première partie). Paris : Vrin .
17. Gaston Bachelard. (1976). Qu'est-*ce que l'idéologie* **?** Paris : Gallimard.
18. Patrick Quantin(1987). *Les Origines De l'Idéologie*. Paris : Economica.
19. Raymond Boudon. (1986). *L'idéologie : L'origine des Idées Reçues*. France : Fayard.
Voirol, Olivier. « Idéologie : concept culturaliste et concept critique », *Actuel Marx*, 1/2008 (n°43) .Consulté le 28/02/2017. URL : http://www.cairn.info/revue-actuel-marx-2008-1-page-62.htm

Abstract:
The term "ideology", which is no more than 200 years old, has preoccupied a large number of researchers and thinkers in various fields of human and social sciences. Although this concept is widely used, there is no consensus on its definition. It is no exaggeration to say that "ideology" is one of the most controversial and least well-defined concepts. Indeed, "ideology", as a social and historical construct, has become a cultural product par excellence, with multiple functions and uses according to the multiplicity of goals and different ideological interests.
This paper endeavours to disambiguate the concept of "ideology", by revealing the various meanings that have been accrued to it in Western thought, and by identifying the most prominent points of transformation and modification that it has been subjected to through its historical course. In order to achieve this endeavour, the research has been divided into seven modules. Each module presents one of the definitions of ideology, accompanied with intellectual models that embody this diversity of views and multiplicity of meanings.
Keywords: ideology, Ideonomy, false consciousness, class conflict, political ideology, totalitarian ideology.